
جليــ
Telegram:@mbooks90
رواية
حزن يغطيه الريش
ماكس بورتر
ترجمة: كريم كيلاني

حزن يغطّيه الريش

ماكس بورتر

Grief Is The Thing With Feathers

Max Porter

جليس

شركة جليس للنشر والتوزيع



«مذهل ويصعب نسيانه»

صحيفة التايمز

«لا يشبه أي شيء قرأته من قبل»

مختارات الجارديان السنوية

«أحد أكثر الكتب إثارة للدهشة هذا العام»

مجلة سبكتاتور

«موجز ورائع»

آدم مارس جونز

«تجربة قراءة مبهرة»

الملحق الأدبي للتايمز

«ينفطر له القلب، ساخر حد الحزن، ومؤثر بشدة»

جارديان

«جميل بشكل لا يصدق، سيأسر لب كل من أحب أو فقد عزيز، إنه حزين جدًا وساخر للغاية»

روبرت ماكفرلين

«لست متأكدًا من أنني قرأت شيئًا مماثلًا من قبل، لقد أذهلني بجماله ومرحه وسوداويته العميقة، سيلازمني لوقت طويل جدًا»

إيفي وايلد

«مدهش تمامًا، ورائع حقًا»

الجزء الأول

مسحة من الليل

إلى رولي

أولاد

ثمة ريشة على وسادتي.

الوسائد مصنوعة من الريش، اذهب إلى النوم.

إنها ريشة سوداء كبيرة.

تعالَ ونم في فراشي.

هناك ريشة على وسادتك أيضًا.

فلنترك الريش في مكانه، ولنَنم على الأرض.

بابا

بعد أربعة أو خمسة أيام من وفاتها، جلستُ وحدي في غرفة المعيشة أتساءل ماذا أفعل. أتجوّل منتظرًا أن تمضي الصدمة بعيدًا، في انتظار أي شعور إيجابي للخروج من التزييف المنظم لأيامي. شعرتُ بأنني ملعقة فارغة. كان الأطفال نائمين، فشربتُ ودخّنت لفافات تبغ قرب النافذة. شعرت أنه ربما تكون النتيجة الرئيسية لرحيلها هي أنني سأصبح دائمًا هذا الشخص المنظم، هذا التاجر الذي يصنع القوائم في كليشيهات من الامتنان، مهندس روتين آلي للأطفال الصغار الذين فقدوا أمهم. شعرتُ بحزن من البعد الرابع، مجردًا، غير مألوف. شعرت بالبرد.

عاد الأصدقاء وأفراد العائلة الذين كانوا يتسكعون حولي بدافع اللطف إلى منازلهم ليعيشوا حياتهم الخاصة. عندما ذهبَ الأطفال إلى الفراش، لم يكن

للشقة أي معنى، واتسم كل شيء بالجمود.

رنَّ جرس الباب واستعددتُ لمزيد من اللطف. لازانيا أخرى، بعض الكتب، عناق، بعض معلبات الطعام الجاهزة للأولاد. بالطبع، أصبحتُ خبيرًا في سلوك دورة الحزن. إن الوجود في مركز الزلزال يمنح وعيًا أنثروبولوجيًا غريبًا تجاه الآخرين، فمنهم المُثقّلون، غير المبالين، والمنتظرون لما هو آتٍ، وكاسر الإقامة، وأقرب أصدقائها الجدد، وأصدقائي وأصدقاء الأولاد، ومن ليس لديَّ أي فكرة لعينة عمَّن يكونون.

شعرتُ وكأنني الأرض في تلك الصورة المذهلة للكوكب المحاط بحزام كثيف من النفايات الفضائية. شعرت أنَّ سنواتٍ ستمر قبل أن يضعف الحلم المتشابك لمراسم فجيعة الآخرين على زوجتي الميتة، بما يكفي حتى لا أرى أي مساحة سوداء مرة أخرى، وبالطبع -وغنيٌ عن القول- أشعرتني أفكار من هذا النوع بالذنب.

لكنني اعتقدتُ، دعماً لنفسي، أن كل شيء قد تغير، وأنها رحلت وبالتالي أستطيع أن أفكر فيما أشاء.

كانت ستوافق، لأننا كنا دائمًا نُفرط في التحليل، والسخرية، وربما كنا حائرين ولم نخلص لأحد من عاهرات حفل عشاء ما بعد الوفاة، أصحابِ النوايا الطيبة، المنافقين، الأصدقاء.

رنَّ الجرس مرة أخرى.

نزلتُ السلالم المغطاة بالسجاد إلى الردهة الباردة، وفتحت الباب الأمامي.

لم تكن هناك إنارة في الشوارع، أو صناديق قمامة أو حجارة رصف. لا شكل ولا ضوء، لا شكل على الإطلاق، مجرد رائحة كريهة.

سمعتُ فرقعة ودويّاً ردّني إلى الوراء على عتبة الباب. كان الردهة سوداء

قاتمة وشديدة البرودة وفكرت «ما هو نوع العالم الذي قد أتعرض فيه للسرقة في منزلي الليلة؟» ثم فكرت، بصراحة، ما الذي يهم؟ فقط قلت: «لا توقظ الأولاد، فهم بحاجة إلى نومهم. سأعطيك كل قرش أملك طالما أنك لا توقظ الأولاد».

فتحت عينيّ وكان الظلام ما يزال مخيمًا، وكل شيء يُصدر طقطقة وحفيفاً.

الريش.

كانت هناك رائحة عفن قوية، رائحة نتانة مكسوة بالفراء لطعام فاسد، وطحلب، وجلد، وخميرة.

ريش بين أصابعي، في عيني، في فمي، تحتي أرجوحة من الريش ترفعني قدمًا فوق الأرض المكسوة بالبلاط.

***

تومض ببطء عينٌ سوداء نفاثة لامعة بحجم وجهي، في تجويف جلدي متجعد، تبرز منه خصية بحجم كرة القدم.

صه!

صه!

وهذا ما قاله:

لن أغادر إلا عندما لا تحتاج إليّ بعد الآن.

قلت: أنزلني.

ليس قبل أن تقول: مرحبًا.

أنزِلني..

تذمرت، فدفًأ بولي قاعدة جناحه.

أنت خائف. فقط قلْ: مرحبًا.

أهلًا.

قلها بشكل صحيح.

استلقيث واستقلتُ من عملي وتمنيت لو لم تمت زوجتي. تمنيت ألا أستلقي مرعوبًا في حضن طائر عملاق في الردهة. تمنيت لو لم أكن مهووسًا بهذا الشيء فقط مع وقوع أكبر مأساة في حياتي. كانت هذه تطلعات واقعية، كانت رائعة بمرارة. كان لديَّ بعض الوضوح.

قلتُ: مرحبا أيها الغراب، أمر جيد أن ألتقي بك أخيرًا.

***

ثم ذهب.

نمتُ لأول مرة منذ أيام. حلمتُ بأوقات الظهيرة في الغابة.

غراب

كان لقاؤنا الأول شديد الرومانسية، إذ تصرَّف بشكل سيئ. نصبَ الفخ، سريران مسطحان في الطابق العلوي، عند مستوى البصق، خطأ شائك طفيف، تسلَّل بسهولة عبر الحائط وأعلى غرفة النوم في العليّة، ليرى هذين الولدين القطنييْن نائمين في صمت، همهمة الأطفال الأبرياء المسكرة، الوبر، علب مزخرفة رخيصة، المكان كله حزينٌ بشدة، كل سطح تظهر عليه الأم الميتة، كل قلم تلوين، كل معطف، كل حذاء برقبة، يغطيه شريط من الحزن.

أسفل سلالم ماما الميتة، طقطقت المخالب الملتوية على بعضها، وراحت تهمس حتى وصلت إلى غرفة نوم بابا التي كانت مؤخرًا غرفة ماما وبابا.

كنتُ هيرن(1) الصياد بلا قرون، مديون سيئ السمعة، وغد. ها هو في

الخارج، سكران من الشراب الأبيض. انحنيتُ فوقه وشممت أنفاسه. الشجيرات الفاسدة، وقنديل البحر الأزرق. فتحت فمه وعددت العظام، تناولَ وجبات خفيفة بأسنانه التي لم يغسلها، نظفتُ أسنانه بالخيط، طرحَ غرابي لسانه إلى الخارج، هنا وهناك، فرفعتُ اللحاف. قبلته قبلة إسكيمو(2)، وقبلة خاطفة، وقبلة جيني وورين(3) برفرفة متواصلة.

لم يندهش، لم يحفّزه وصولي أسفل ملاءته على النهوض.

روت يوت كوت!

استيقظ الإنسان (ريش الطير في فتحتك، وفي عينك البلهاء وفي فمك) لكنه نام وكانت غرفة النوم عبارة عن ضريح. لقد نجا بالخطأ، وكنتُ أعرف أن هذه أفضل حفلة، قليل من المرح الحقيقي. وضعت مخلبي على مقلة عينه وضغطتُ بحذر من أجل المتعة أو الرحمة. التقطتُ ريشة سوداء من رأسي وتركتها على جبهته. كتذكار، وإنذار، ومسحة من الليل في الصباح، أو استراحة صغيرة وسط الحداد.

همستُ، سأعطيك شيئًا لتفكر فيه. استيقظْ دون أن يراني من سواد صدمته.

طقطقَ متمتمًا: غوييييز..

غوييييز

بابا

عدتُ اليوم إلى العمل.

مارست الإدارة لمدة نصف ساعة، ثم رُحت أرسم شخبطات.

رسمتُ صورة الجنازة. كان للجميع وجوه غراب، باستثناء الأولاد.

غراب

انظر إلى هذا، انظر، هل فعلتُ أنا ذلك أم لم أفعله؟ انظر، اطعنهُ.

كتاب جيد، أجساد مضحكة، باب مفتوح، صفعَ الباب، بصقَ هذا، لعقَ ذاك، ارفع، أوه، انظر، توقف.

فرصة عطاء. لا تهتم، كل مساء، بزوغ الفجر، كل شيء يتغير، كل تلك اللحوم، كل اللحوم هذه، افصل الرائحة. هل فعلتُها أنا أم لم أفعل؟ أوه مدرج الأسفلت. تمويه صالح للأكل، لزج، سيئ.

اربطني على الصاري، و سأضربها حتى تتسرب منها الرياضيات آسف، آسف، آسف، انظرا يد مقطوعة، شجيرات، صندوق من البجع، صندوق قصص، قوس من البول، أفضل حالاً، يجب أن تتوقف عن الاهتزاز، يجب أن تظل ثابتة، الصاري يبقى ثابتاً.

أوي، انظر، صدِّقني. هل أنا؟ أو لم أقم بتسليم سانت فنسنت إلى لشبونة بأمانة. رحلة آمنة، قليل من الكبد، شمّ، شمّ، منعّم أقمشة، جلد، درابزين مُذاب من القنابل، رصاص. هل حملتُ أو لم أحمل الحاج عبر النهر؟ القرف لا، لا. غنِّ أغنية
Telegram:@mbooks90
الشحرور دون توقف، اللعنة، صفراء، سيئة، فتى جميل، مزحة، صرير، مزحة، مزحة، مزحة. الصبر.

كان بمقدوري أن أثنيه على كرسي، وأُطعمه بالتنقيط النشرات الحامضة عن وفاة زوجته الحقيقية لمدة ساعة. ربما هناك طيور أخرى، ما من شرير جيد في المملكة. من الأفضل التكسير.

أنا أؤمن بالسبل العلاجية.

أولاد

كنّا فتياناً صغاراً، بسيارات تعمل بالتحكم عن بعد وطوابع حبر، وكنا نعلم أنّ شيئًا ما قد حدث. كنّا نعلم أننا لم نحصل على إجابات مباشرة عندما سألنا:

«أين أمي؟» وعرفنا أنَّ شيئًا ما قد تغير، حتى قبل أن يتم اصطحابنا إلى غرفتنا وإخبارنا بالجلوس على السرير على جانبي أبي. لقد خمَّنا وفهمنا أن هذه كانت حياة جديدة، وأن أبي أصبح مختلفًا عن باقي الآباء الآن، وكنَّا أولادًا مختلفين، كنَّا أولادًا شجعانًا بدون أم. لذلك عندما أخبرنا بما حدث، لم أعرف أي أمر يفكر فيه أخي، ولكني فكرتُ في الآتي:

أينَ سيارات الإطفاء؟ أين ضجيج وصخب حدث مثل هذا؟ أين الغرباء الذين يحيدون عن طريقهم للمساعدة، والصراخ وإلقاء قطع من معدات الطوارئ التي تتوهج في الظلام علينا لمحاولة تهدئتنا وإنقاذنا؟

يجب أن يكون هناك رجال يرتدون الخوذ ويتحدثون لغة الأزمة الجديدة ودراميّتها. يجب أن تكون هناك مستويات مروعة من الضوضاء، غريبة تمامًا وغير مناسبة لشقتنا المريحة في لندن.

لم تكن هناك حشود ولا غرباء يرتدون الزي الرسمي، ولم تكن هناك لغة جديدة للأزمة. بقينا في مناماتنا، وزارنا الناس وقدموا لنا أشياء.

أصبحت العطلة كأيام الدراسة.. بلا فرق.

غراب

في نسخة أخرى أنا طبيب أو شبح. إنها أجهزة مثالية: أطباء وأشباح وغربان. يمكننا القيام بأشياء لا تستطيع الشخصيات الأخرى القيام بها، مثل أكل الحزن وأسرار عدم اكتمال الولادة وخوض معارك مسرحية مع اللغة. كنتُ صديقًا، عذرًا، مددًا من السماء، مزحة، عَرَضًا، نسج خيال، عكازاً، لعبة، شبحاً، كمامة، محللاً، وجليسة أطفال.

في النهاية كنت: «الطائر المركزي. . . على كل حال».

أنا مَثل. أعرف ذلك، وهو يعرف ذلك. أسطورة يجب الانزلاق فيها.

لا بدَّ لي من الدفاع عن موقفي، لأن موقفي عاطفي. أنت لا تعرف حكاياتك الأصلية، وحقيقتك البيولوجية (حادث)، وموتك (بسبب لدغات البعوض على الأغلب)، وحياتك (إنكار، بكل سرور). أتردد في المناقشة العبثية مع أي منكم وقد اضطهدونا منذ بدأ الزمن. ما فائدة الغراب لحفنة من البشر الحزينين؟ حشد.

ألم

قرحة



انسداد

تثاؤب

حمولة

فجوة.

لذا نعم. أنا آكل الأرانب الصغيرة، وأنهب الأعشاش، وأبتلع القذارة ، وأخدع الموت، وأسخر من المشردين الجوعى، وأضلل. أوو، اطعنهُ! يا لكل هذا الوقت الضائع اللعين!

لكني أراعي حقًا، وأرى أنَّ البشر مملُّون إلا في الحزن. قلّما تثير اهتمامي الصحة أو الكوارث أو المجاعات أو الأعمال الوحشية، الرائع أو العادي (قلّما تهمني!) لكن يهمني الأطفال الذين لا أمهات لهم، الأطفال الذين لا أم لهم هم شأن أصيل للغراب. بالنسبة للطائر المتحمس، فهذا ناضج وغني ولذيذ.. مغرٍ مثل هذا العش.

بابا

لقد جذبتها إليّ في صغرها، وضلوعها ممددة مثل إكسيليفون، والطيور النافقة تعزف الألحان على عظامها.

غراب

كتبتُ مئات المذكرات. إنه ضروري للأسماء الكبيرة مثلي. أعتقدُ أنه يسمى بالأمر الحتمي.

ذات مرة، كان هناك حفل زفاف لعين، وكان ابن الغراب غاضبًا لأن والدته تتزوج مرة أخرى. لذلك طارَ بعيدًا. طارَ ليجد والده ولكن كل ما وجده هو الجيَف. كوَّن صداقات مع المزارعين (قامَ بتسليم طيور أخرى إلى بنادقهم)، والعلماء (قام بأداء الحيل بأدوات لا يمكن حتى للشمبانزي القيام بها)، وشاعر أو اثنين. ظنَّ أنه عثرَ على عظام والده في عدة مناسبات، وبكى وصرخ على طيور الباز اللعينة «ها هي العظام الرمادية لبابا المغطى بالقلنسوة»، ولكن كلما أعادَ النظر رأى جثة أخرى.

لذلك، سئمَ حياة الأساطير، سئمَ من فَأله الشهير، قفزَ وطارَ وجرجرَ نفسه إلى المنزل. كان حفل الزفاف ما يزال حاميًا، ولم يكن الغراب الرمادي القديم، الذي يجلس مع والدته في كومة القمامة عند أسفل الدرج، سوى والده. صاحَ ابن الغراب بجراحه وبارتباكه في وجه والديه إذ يتلوَّيان. ضحكَ والده. كونك. كونك. كونك. لقد عشتَ وقتًا طويلاً وكنتَ غرابًا مرارًا وتكرارًا، لكنكَ ما زلت لا تستطيع أن تحتمل مزحة.

بابا

ليِّن.

خفيف.

مثل الضوء

مثل قدم طفل مغطاة بطبقة من التلك تمَّ تقبيلها. مثل مخملٍ يمكنه أن يوقف سكتة دماغية، مثل الغبار، مثل الدبابيس والإبر، مثل الوعد، مثل اللعنة، مثل

البذور، مثل كل شيء محبب، مُضفر، مربوط أو مرقَّم، مثل كل شيء من صنيع الطبيعة عنيف وهادئ.

كل هذا مفقود الآن. لا شيء يبقى.

أولاد

اكتشفنا أنا وأخي سمكة جوبي في بركة صخرية في مكان ما. فقررنا أن نقتلها. في البداية رمينا لوحاً خشبياً في البركة، لكن السمك كان سريعًا. ثم جرّبنا الصخور الكبيرة والأحجار، لكن الأسماك كانت تختبئ في الزوايا تحت الشقوق الصغيرة، أو تندفع بعيدًا. كنّا أولادًا وكانت السمكة مجرد سمكة، لذلك ابتكرنا طريقة لقتلها. لقد ملأنا المسبح بالحجارة، حجزنا سمكة الجوبي وسددنا منافذها بالتدريج. سرعان ما دارت ببطء وحزن في حوض السجن الصغير، واخترنا حجرًا ضخمًا ألقاه أخي بقوة ذراعه، ففرقعَ وتناثرَ الماء، ثم رفعناه بسرور، من المؤكد أن السمكة كانت ميتة. اختفى كل المرح عبر الشاطئ الفارغ الواسع. شعرتُ بالمرض وأخذَ أخي يسبّ. اقترحَ أن نُلقي الحيوان الميت في البحر، لكنني لم أجرؤ على لمسه، لذا عدنا سريعًا عبر الشاطئ، ولم يرفع أبي نظره عن كتابه لكنه قال: «يبدو أنك فعلت شيئًا سيئًا».

بابا

لن نتشاجر مرة أخرى أبدًا، حُججنا النموذجية الجميلة والسريعة. مشاجراتنا المطرزة بعناية.

يصبح المنزل موسوعة مادية لكل ما لم يعد ملكُها. مما يؤدي إلى صدمات تلو الصدمات وهو الفرق الرئيسي بين منزلنا والمنزل الذي كابدنا فيه المرض، إن المرضى في يومهم الأخير على الأرض، لا يتركون ملاحظات معلقة على زجاجات من النبيذ الأحمر تقول: «أوه.. لا تلوي خدّك». لم تكن مشغولة بالموت، ولا توجد حتى بقايا اهتمام، كانت ببساطة مشغولة بالعيش، ثم رحلت.

لن تستخدم أبدًا (مساحيق التجميل، والكركم، فرشاة شعر، قاموس المرادفات).

لن تُنهي أبدًا (رواية باتريشيا هايسميث، زبدة الفول السوداني، بلسم الشفاه).

ولن أتسوَّق أبدًا لشراء كلاسيكيات فيراجو(4) الخضراء في عيد ميلادها.

سأتوقف عن إيجاد شعراتها.

سأتوقف عن سماع تنفُّسها.

أولاد

اكتشفنا سمكة في بركة وحاولنا قتلها لكن البركة كانت كبيرة جدًا، وكانت الأسماك سريعة جدًا لذا قمنا بخنقها وتدميرها. في وقت لاحق، ولمدة طويلة، كان أخي يصور لنا البركة والأسماك. مخططات توضح اختياراتنا. يستخدم أخي دائمًا الرسوم البيانية لشرح اختياراتنا، لكنها ليست علمية بل هي غير مرتبة. يحب أخي عمل رسومات بيانية سيئة على الرغم من أنه يستطيع الرسم بشكل جيد.

غراب

رأسي للأسفل، رشفة سريعة، انظر.

رأسي للأسفل، قفزة للأسفل، ترنّح.

ابحث عن «نغمة نعيق صاخبة وقاسية وناقمة» (دليل كولينز للطيور(5) ص ٤٥).

رأسي للأسفل، أعلى القنينة، خزَّاف.

رأسي للأسفل، نظِّف كثيراً أيها القافز.

يمكنه أن يتعلم الكثير مني.

لهذا السبب أنا هنا.

بابا

هناك تبادل رائع مستمر بين الذات الطبيعية للغراب وبين ذاته المتحضرة، بين نابش الفضلات والفيلسوف، إلهة الوجود الكامل والبقعة السوداء، بين الغراب وطبيعته كطائر. يبدو لي أنه التبادل الذاتي بين الحداد والعيش، بين الماضي والحاضر. يمكنني أن أتعلم الكثير منه.

أولاد

رحلَ أبي. الغراب في الحمام، حيث غالبًا ما يكون لأنه يحب الصوتيات. نجلس القرفصاء عند الباب المغلق ونُصغي. إنه يتحدث ببطء شديد، وبوضوح شديد. يبدو من الطراز القديم، مثل تسجيل أبي لديلان توماس(6) على مشغّل الأسطوانات. يقول فجأة، ويقول وقعت، ويقول صدمة. . . يسعل ويبصق ويحاول مرة أخرى، محفّزًا. يقول إن الصدمة المفاجئة أحدثت تغيرًا في الانتباه.

عادَ أبي، فيغيّر الغراب نبرته.

غراب

جرومينيرا!

مقلق، مروّع. مرحبًا إلير.. كريب.. كريب.. كريب، من هو ذلك الفاصوليا اللعازرية(7) التي أقطعُها؟ اسمحوا لي أن أقوم برفرفة تابا واحد تابا اثنان، أطفال بلا أم في جعبتي، في محرابي، بكمياتٍ متعددة للغليان، أطلقهُ! دحرجهُ وقلبهُ!، شفاه حزينة وأحرقُها. أوه ، الضغط! يجب أن يتدرب، يجب أن يقلل من لعنهِ. نبل الطبيعة، هههههههههههههههههه من الأفضل ألا نفتح هذا؟

(أفعلُ هذا، وأقوم ببعض أمور الغراب غير المقيدة، من أجله. أعتقد أنَّ فيه بعضاً من ستونهنج(8) الشاماني، يسمع روح الطائر. لا أعترض على أي شيء طالما يعجبه).

ميغاليث(9)!

الجزء الثاني

دفاع العش

بابا

تبقى أربعة عشر شهرًا لإنهاء كتاب: «غراب تيد هيوز على الأريكة: دراسة برية»(10)مع بارنثيس للنشر. لديّ ناشر خسيس مقيم في مانشستر يرسل لي ملاحظات مشجعة، ويقول إنه سيتفهم ما إذا كان تأليف كتاب في هذا الوقت أمراً ثقيلاً. اتفقنا أنّ الكتاب سيعكس الموضوع، سأحوم حوله. بارنثيس يأملون أن يجذب كتابي كل شخص سئم من علم آثار تيد وسيلفيا(11)، دعونا نتفق أن الأمر لا يتعلق بهما. نحن نهمل مناقشة ما يجب أن يكون عليه الأمر.

في كل مرة أجلس وأُلقي نظرة على ملاحظاتي يظهر الغراب في مكتبي. أحيانًا يتدلى على الأرض، ويستريح على جناح واحد «انظر! أنا أجمل من في كورفينوا!»، وأحيانًا يجلس بصبر على كتفي وينصحني «هل هذا عادل على باسكن حقًا؟». في معظم الأوقات، يسعده أن يجلس متكورًا على الكرسي ذي المسند في هدوء يتنفس ويتنقل عبر الكتب المصورة والدواوين الشعرية، يتنهد ويتنهد. ليس لديه وقت للروايات. إنه يلتقط كتب التاريخ فقط ليصنف الرجال العظماء أو يلعن الكنيسة. إنه يستمتع بالمذكرات وكان سعيدًا حين اكتشفَ كتاب عن امرأة اسكتلندية تبنّت رخاً.

غراب

ذات مرة كان هناك طائر جليس للأطفال، دعونا نسميه غراباً. لقد قرأ الكثير من القصص الخيالية الروسية (الفتى الكسول يحترق، وعواء بابا ياجا، والأمير اللائق يفوز)، لكنه مع ذلك كان جليسًا معتمدًا ومُجازاً، وقد أعجبَ كثيرًا من الأهالي في لندن، ويزيد الطلب عليه ليلة الجمعة. كُتب في إعلان بالصحف:

«إلى وادي الحفاضات(12) وما بعدها!»

أطفئ التلفاز، واقترح الغراب لعبة.

قال الغراب: «أيها الفتيان.. يجب أن يبني كل منكما -هنا على الأرض- نموذجًا لأمّكما، تمامًا كما تتذكراها! ومن يبني أفضل نموذج يفوز. ليس الأكثر واقعية بل الأفضل والأصدق. وهذه هي الجائزة..» مسحَ شعره بعد غسله بالشامبو وأردفَ: «أفضل نموذج سأجعله ينبض بالحياة، أمٌّ حيّة تضعك في السرير».

وهكذا بدأ الولدان في ذلك.

ذهب الابن إلى الرسم، ركّز بشدة مثل رسام صغير يخربش بيديه وبركبتيه على السقالة للرسم بطريقة الفريسكو(13). تمَّ لصقُ سبعة وثلاثين ورقة من قطع الـ A٤ ، وقوس قزح كامل من أقلام التلوين وأقلام الرصاص وأقلام الحبر الجاف، بينما تقضم أسنانه الأمامية شفته السفلية، ويتنهد أنفه محتقنًا، وهو يركّز بصره ويفرك عينيه ثم يبدأ من جديد، يشق طريقه إلى أسفل، سعيدًا باليدين، سعيدًا بالساقين.

لجأ الابن الثاني إلى التجميع، نموذج لامرأة مصنوع من أدوات المائدة والأشرطة والأدوات المكتبية، والألعاب، والأزرار، والكتب، يعدّلها يدويًا، يقفز ويستلقي مثل ميكانيكي في حفرة الفحص، ينقر ويهزّ بينما كان يشق طريقه حول ماما الفسيفسائية، سعيدًا بالوجه، سعيدًا بالارتفاع.

وقال الغراب: «توقفا!».

قال إعجابًا بعملهما: «كلاهما استثنائيٌ.. وصلتما إلى ابتسامتها، والتقطتما وضعيّتها، كتفاها منحنيان إلى هذه الدرجة بالضبط!».

ولم يستطع الولدان الانتظار لمعرفة الفائز «أي واحد؟! أي أم؟!» ، ولكن الغراب بدأ في القفز، وتجنّب أنظارهما، وكتمَ ضحكته وأشاحَ بنظره عنهما.

«يا غراب، أي واحدة من هؤلاء الأمهات المزيفات فازت لنا بأخرى حقيقية؟».

وكان الغراب هادئًا، ولم يعد يضحك.

«يا غراب لا تضحك، دعنا نحصل على أمنا الحقيقية».

وبدأ الغراب في البكاء.

وطبخَ الفتيان الغراب في فرن شديد الحرارة، حتى لم يتبقَّ منه سوى خلايا.

هذا هو كابوس الغراب.

أولاد

قبل موتها قالت: نعم؟

لسنا بحاجة للاستحمام، فمؤخراتنا نظيفة.

كلانا استحمَّ ليلة أمس.

قالت: حسنًا. هيا إلى الفراش لنقرأ قصصًا.

قبل موتها قالت: نعم؟

لسنا بحاجة للاستحمام، فمؤخراتنا نظيفة.

كلانا استحمَّ ليلة أمس.

قالت: حسنًا. لا قصص بدون استحمام.

القرار لكما.

بابا

سنملأ هذا المنزل بالألعاب والكتب، ونبكي كمَن انثبذوا خارج مجموعة اللعب المدرسية.

رفضتُ أن أفقد زوجتي وأقوم بالأعمال المنزلية، لذا قبلتُ المساعدة. كان أخي مذهلاً، أعطِني الطعام، دعني أصرخ، مع الأولاد، مع البنك، مع مكتب البريد، والمدرسة، والأطباء وأهلنا. كان والداها طيبين، في الخدمة والمال ومع الناس. أعطوني مساحة، أعطني الوقت، أعطني إحساسًا بها، دعني أعتذر، دعني أجد طريقًا خارج الغضب البسيط. أصدقاؤها، وعائلاتنا، الأخبار والتفاصيل، وأغراضها. يفخرون بها، ويفعلون ذلك على النحو الصحيح، يختبرون طريقًا ويصممونه لنا، وما من ابتذال في الأفق.

أولاد

لم يمضِ وقت حتى بدأت جدَّتنا تحتضر.

قيل لنا إنه يمكننا الصعود، لذا صعدنا. كانت السجادة ثقيلة وناعمة وكنَّا حفاة. لديها أنبوبة أكسجين على عجلات. ذهبنا إلى جانبي السرير وأمسك كل منا بإحدى يديها، كانت اليد التي أُمسكها مجعدة وناعمة ودافئة بشكل مثير للدهشة. قالت إن لديها بعض الأشياء لتخبرنا بها إذا كنَّا على استعداد لسماعها. قلنا إننا مستعدون. قال أخي «وُلدت مستعدًا يا جدتي» وهو ما اعتقدتُ أنه غير لائق، لكنها قالت: «نعم، ولدتَ مستعدًا يا حبيبي».

أخبرتنا أن الرجال نادرًا ما يكونون طيبين حقًا، لكنهم غالبًا ما يكونون مضحكين، وهذا أفضل. قالت: «من الأفضل أن تحضِّروا أنفسكم لخيبة الأمل، في تعاملكم مع الرجال. قالت: «إن النساء بشكل عام أقوى بكثير، وعادة ما يكُنَّ أكثر ذكاءً، ولكنهن أقل مرحًا، وهذا مخزٍ. أنجبوا أطفالاً إن استطعتم، لأنك ستجيدون ذلك. اقتنوا أي شيء تجدونه في هذا المنزل. أريد أن أعطيكم كل ما أملك لأنكم أثمن وأجمل الأولاد. تذكَّروني بكل شيء جميل قد أهتمُ به على الإطلاق».

«هل تكرهون رؤيتي إذ ألهث؟».

«لا، لا بأس» قلنا.

قالت: «خذوا السجائر من أدراج المطبخ، وذات يوم ستصفّرون هكذا مثلي. ستنفث زهور الأقحوان على قبري وتُصدر صوت صفير، تذكرا كلامي».

مكثنا أثناء نومها حتى قامت امرأة طويلة ترتدي زيًا أبيض ضيقًا بتغيير غطائها.

بابا

على جانب الطريق كان هناك ثعلب صغير ميت، عيناه مفتوحتان، عالق متجمد على العشب، يبدو كما لو وُلد ميتًا أكثر من كونه ماتَ على الطريق.

يمكنني نقله إلى هيبتونستال(14) أو إحضاره ليذوب جليده في المطبخ حتى يراه أبنائي.

أنا مهووس.

أتذكّر الليلة التي عدتُ فيها إلى المنزل وأخبرتها أنني انتهيت من عرض الكتاب، وقالت: «الله يعيننا جميعًا» شربنا بروسيكو(15) وقالت إنه يمكنني أن أحصل على هدية عيد ميلادي مبكرًا، فكانت غراباً بلاستيكياً. لقد مارسنا الحب وقبّلتُ عظام كتفيها وذكّرتها بقصة والديّ اللذين يكذبان عليّ بشأن الأجنحة التي تنمو على ظهور الأطفال فقالت: «جسدي ليس مثل الطيور».

كنّا في منتصف الطريق، قبل النهاية بسنواتٍ، لا نسلّم بأي شيء.

أريد أن أكون هناك مرة أخرى مرة بعد مرة. أردتُ أن أحمَل، أردتُ أن أحمله. كان الغراب البلاستيكي.

تطارحنا الغرام. حكاية الجناح، جسدي ليس بطائر.

مجددًا

الأجنحة

الحب

مثل الطيور

مرة أخرى.. أتمنى كل شيء مرة أخرى.

***

أولاد

اعتدنا أن نلعب لعبة تسمى «الانفجار الصوتي»، كنَّا نطير بأسرع ما يمكن عبر غابة الصنوبر كالرصاص عبر الحشد، ونتنافس على الالتفاف في آخر لحظة قبل الشجرة. كنَّا نطير بأسرع ما يمكن عبر غابة الصنوبر ثم ننقلب، ونتدحرج جانبًا ملليمترات من الشجرة، ونصيح: «انفجار صوتي!» ونحن نتدحرج. ذات يوم سخرتُ من أخي. تحدَّيته على الارتداد من الشجرة مثل رصاصة تحدّق من كتفِ عابرة.

Telegram:@mbooks90

انطلقتُ أولاً وقمت بالطيران بقوة نحو الشجرة مباشرة، وصدرَ انفجار صوتي في اللحظة الأخيرة وضربَ جناحيَ الجذع، وفجأة! انطلقتُ في الغابة (مثل رصاصة تلقي نظرة خاطفة على كتف عابرة). طارَ أخي على ارتفاع منخفض جدًا وبسرعة كبيرة ولم يستدز أبدًا، اخترقَ غصن حاد حلقه عبر رقبته وعلقَ هناك وهو يزحف: «صوتي. صوتي. صوتي».

هذا صحيح جزئياً فقط.

بابا

لقد لعبوا على الطيور ولعبوا على الأسود. مروا بمراحل: الديناصورات، الشاحنات، الرعد، الكونغ فو، الكذب، الرياضة.

لم يكن الفرق بين عالمهم الخيالي والعالم الحقيقي كبيرًا، وتحدَّث الناس عن آليات المواجهة والطفولة الطبيعية والوقت. قال الكثير من الناس: «أنت بحاجة

إلى الوقت»، في حين كان كل ما نحتاجه هو مسحوق غسيل، وشامبو ضد القشرة، وملصقات كرة القدم، وبطاريات، وأقواس وسهام وأقواس وسهام.

لم يكن الفرق بين عالمهم الخيالي والعالم الحقيقي كبيرًا، وتحدّث الناس عن أعباء العمل المعقولة وفترات التعافي والهواجس الصحية. قال كثير من الناس: «أنت بحاجة إلى وقت»، بينما ما كنتُ بحاجة إليه هو شكسبير وابن عربي وشوستاكوفيتش(16) وهولين وولف(17).

أذكر أنهم لم يشربوا الشاي، وقمتُ بقطف أصابع السمك نصف المأكولة والبازلاء الباردة والكاتشب الفاسد.

أذكر أنني قلت: «سوف ألقي بكل لعبة في سلة المهملات!» فضحكوا.

أذكر أنني كنتُ خائفًا من أنَّ شيئًا ما حتمًا يجب أن يكون خطأً، إذ كنَّا سعداء هي وأنا، في الأيام الأولى، عندما كان حبّنا يستقر في قالب حياتنا مثل خليط الكعك الذي يصل إلى زوايا الصينية بينما ينتفخ ويُخبز.

أذكر موعدي الغرامي الأول، في الخامسة عشرَ من العمر، مع فتاة تدعى هيلاري جيددينغ. سقطت عملة معدنية على ظهر مقاعد السينما وانزلقَ كلانا بأيدينا في الفجوة الضيقة الضيقة للكراسي، بين حبات الفشار وبقايا التذاكر اللاصقة، فتلاقت أيدينا إذ نمسّد السجادة بحثًا عن العملة المعدنية، وكان شعورًا كهربائيًا، بينما يُثبِّت الرسغ على المقاعد المفروشة، في الظلام، الصدفة، قذارة الأماكن العامة الجميلة.

أولاد

كان أبي والغراب يتشاجران في غرفة المعيشة. الباب مغلق. كانت هناك أصوات غرابية «كاويرا.. سكررا.. كاو.. ويقول أبي: توقف! توقف! نعيق، زحف، عرقوب، تجشؤ، بصق، لغة بذيئة، تعجب، نباح، تنهُّد، موسيقى غريبة

لجاميلان(18) من أصوات الأب المحطم، ونداءات طيور عنيفة، ارتطام وصراخ وشقوق ووخز.

ظهرَ الغراب، منزعجاً وواسع العينين. أغلقَ الباب خلفه بلطف وانضمَّ إلينا على طاولة المطبخ.

قمنا بتلوين صور حديقة الحيوان باستخدام أقلامنا ذات الرؤوس الملساء، وتجاوزَ الغراب الخطوط.

بابا

أتذكَّرها وهي تدفع عندما طلبوا منها أن تواصل الدفع، وقالت القابلة الجامايكية: «ادفعي يا جيال، ادفعي يا جيال» قالت: «لا أريد أن أتبرّز» وضحكت. قلث: «فات الأوان»، ثم ها هنا الابن الأول، مغطّى بكريم غريب الرائحة، جائع وصغير.

أتذكَّرها وهي تدفع عندما طلبوا منها الدفع، وقالت القابلة الاسكتلندية «يا إلهي! ها قد ظهرَ الرأس». قالت: «اللعنة هذا يؤلم! يؤلم بشدة! اللعنة! اللعنة!»

كانت تبكي عندما جاء ثاني أبنائنا، لونهُ أرجواني ويعوي متكوِّرًا.

إنها السيدة لاكون، تقف على الشاطئ وتعقد ذراعيها. تقول: «انظر إلى هؤلاء الأولاد الملاعين». كنَّا على بعد خمسين قدمًا في البحر يمضغُنا الحزن.

أولاد

في بعض الأحيان نقول الحقيقة. إنها طريقتنا الودية في التعامل مع أبي.

بابا

مقدمة: حلم كرو السيئ، أفتقدُ زوجتي

الفصل ١. الأخطار السحرية، أفتقدُ زوجتي

غراب

ذات مرة كان هناك رجلان كبيران، يتعاملان مع بعضهما كأخوان، شقيقان مع بعضهما بعضاً.

تمَّ انتعالُ نعالِ أحذية الأخ الأكبر على شكل رقع. على بعد نصف ميل من القرية التي تُشرف على ويند ميل هيل، كانت جواربه رطبة وممزقة، وذكرَ شيئًا عن العودة للحصول على أحذية أفضل، ولكن الأخ الأصغر استمرَّ في المشي.

«زوج الأحذية الوحيد الآخر هو أقدم ما لديَّ، وسيكون صغيرًا جدًا بالنسبة لك»

«صحيح»

«حذائي الاحتياطي أفضل من حذائك الوحيد»

صعدا إلى أعلى التلة شديدة الانحدار، مرتفعين على ضفاف رفيعة من الطباشير مثل السباحين الذين يتجاوزون الأمواج المتكسرة، وتوقفا في الأعلى للتحديق في القرية، وهما يجلسان بتطابق تام في الوادي المقوَّس.

«ستُعاني في تلك الأحذية القذرة يا أخي. في مرحلة ما قد نسير على أحجار حادة أو نحتاج إلى السير على الأغصان الشائكة»

«أتخيّل أننا قد نفعل ذلك في وقت ما»

«إذن كل ما أقوله إنكَ ستعاني»

قام الأخ الأصغر وبصقَ كرة من البلغم على بوابة الطاحونة وسبَّ مالكها. ضحكَ الأخ الأكبر.

سارا بسرعة عبر غابةِ بولارد التي تغطي الجانب البعيد من ويندميل هيل. تمَّ تعليق سقف من الكشاكيل المضيئة فوقهما واقتحمَ الضوء الأرضية المظلمة.

انطلقَ غزال أحمر من شجيرة مقدسة، وهمسَ الأخ الأكبر : «مرحبًا يا صديقي».

صنعَ الأخ الآخر مسدسًا بيده وصرخَ: «كابووم»، فاندفعَ طائر مذعور إلى الأعلى في النيون الأخضر مع ضحكة مكتومة.

أسئلة للفهم:

- هل تعتقد أنَّ الأخوين في هذا المقتطف واقعيان؟
- هل يغيّر الإطار الريفي للقصة الطريقة التي تتفاعل بها مع الشخصيات؟
- إذا كانت الأحذية عبارة عن استعارة للقدرة على التعامل مع الحزن، فمَن مات برأيك؟
- اكتب الفقرة التالية من القصة، مع التركيز على مواضيع الإنسان مقابلَ الطبيعة، والأحذية، والأخوة، والثورة الروسية.

أولاد

لقد تعرّضتُ للضرب حتى الموت، كما قلتُ ذات مرة لبعض الأولاد في حفلة.

قالوا: يا صديقي هذا مقرف.

أنا أكذب بشأن كيفية موتك، همستُ لأمي.

همسَت مرة أخرى: كنتُ سأفعل الشيء نفسه.

بابا

أذكر أنها فاجأتني حين تظاهرت بحبها لمشاهدة احتفالات توزيع الجوائز، لكن بعد ذلك أخبرتُها أن حفل توزيع الجوائز بدأ، وسيتعيَّن علينا مشاهدته. قالت: دعونا نمضي إلى الفراش، لا نعرف حقًا من يكون أيٌّ من هؤلاء الأشخاص.

قلتُ: الفائزون، كلّ وجه تافه قبيح كمهبلٍ نتن، كل واحد فيهم.

وذهبنا إلى الفراش.

أدركتُ في بعض الأيام أنني كنتُ أنسى الأشياء الأساسية، لذلك ركضت في الطابق العلوي أو السفلي أو أينما كانوا لأقول: «اعلما أنّ والدتكما كانت أكثر شخص مرح ومذهل. كانت صديقتي المفضلة. كانت ساخرة جداً وحنونة»، ثم تنفد قوتي إذ أشعر بالبلادة والكسل، فيقولون: «نحن نعلم يا أبي، نحن نتذكر»

«كانت ستنعتني بالعاطفي»

«أنت عاطفي بالفعل»

لقد سمحا لي بمساحة على الأريكة المجاورة لهما، ويُشبه ألم لطفهما الطبيعي التهاب الزائدة الدودية. يجب أن أتكوّم وأتولّى أمري بنفسي لأنهما طيبان للغاية، ويستمران في تجديد وإعادة شحن لطفهما دون أي مساهمة مني.

غراب

حاولْ أن تفكر في الثلاثة، في واحد، قبل أن نقترب أكثر. أ إلى ب و ت و أ زائد ب والتاء أقَل. جميل. انظرْ مرة أخرى، هذا صحيح، استوعب. الآن من اليسار

إلى اليمين؟ حسن. الآن من اليمين إلى اليسار، جيد. الآن تحرّك بينهم جميعًا بعد واحد اثنان ثلاثة؟ الآن استوعبهم جميعًا مرة واحدة. الآن مرة أخرى، واحد اثنان ثلاثة؟ و... تستوعب. حسنًا، نبدأ:

على اليسار لدينا الأب. تحتل هذه الصورة موقعًا وظيفيًا في البدايات الصعبة، السؤال، ما أحب أن أسميه جورج داير(19) على المرحاض، الجناح الأيسر، الرافعة، بقعة التعلم، الكنيسة الفارغة، خطوة التعذيب لوحة الألم العضلي.

في المنتصف لكَ في الواقع. رائحة الريش الأسود ورائحة الموت النتنة. تا دا! هذا هو اللب الفاسد، غرونوالد، المسامير في اليدين، الإبرة في الذراع، الصدمة، القنبلة، الشيء الذي لا يمكننا بعده كتابة القصائد، الباب المغلق، في البدء كانت الكلمة(20). تعجُب جحيمي شديد، رياضة دموية للغاية، جامعة تاريخية جدًا.

لكن لا تتوقف عن البحث. تدور الثلاثية حول طرق لا تتوقف أبدًا. إنها ثقافة. على اليمين لدينا الأولاد. هيئتان لكن بشكل واحد، يمكن أن يكونا اثنيين، يمكن أن يكونا ذكرين، يمكننا فقط فكّ أربع أرجل صغيرة وأربع أذرع صغيرة (العجل حديث الولادة من اللوحة اليمنى!) ووجوه صغيرة جدًا مفعمة بالأمل. وفجأة يتكون المعنى من اللوحات السابقة، هذه رياضيات بحتة، هذا منطق قديم. إنها الطبيعة. هذا ما أسميه الانطلاق، النمط المتأخر، رحلة عشر السنوات إلى المنزل، السهم عبر فتحة العين، الشرود، غروب الشمس بارد جدًا، مؤثر جدًا.

***

أولاد

لقد اعتدنا جميعًا أن ننال تعنيفاً من أمي بسبب تلطيخ المرآة بمعجون الأسنان.

لبضع سنوات كنّا نتجشأ ونبصق ونفرط في استخدام الفرشاة، وكانت مرآتنا عبارة عن فوضى ذات بقع بيضاء، وقد استمتعنا جميعًا بالذنب.

ذات يوم قامَ أبي بتنظيف المرآة، واتفقنا جميعًا على أنها كانت ممتازة.

لكن مرّت أشياء أخرى مختلفة. تبوّلنا على المقعد. نحن لا نغلق الأدراج أبدًا. لقد فعلنا هذه الأشياء لنفتقدها، لنستمر في الرغبة فيها.

بابا

الزيت، عندما تنظر عن كثب إلى الطين، وعندما تنظر عن كثب إلى الرمال، وعندما ترشفه، يتحول الطمي إلى حرير.

اشتقتُ إليها كثيرًا إلى درجة أنني أردتُ بناء نصب تذكاري لها يبلغ ارتفاعه مائة قدم بيديّ العاريتين. أردتُ أن أراها جالسة على كرسي حجري ضخم في هايد بارك، مستمتعة بما تشاهده. يمكن لأي شخص يمر أن يفهم كم أفتقدها! كيف بلغَ افتقادي حدودًا جسدية مرهقة. افتقادي بحجم أمير ذهبي كبير، وقاعة للحفلات الموسيقية، وألف شجرة، وبحيرة، وتسعة آلاف حافلة، ومليون سيارة، وعشرينَ مليون طائر وأكثر. أفتقدُها بحجم المدينة كلها.

قال الغراب: أنتَ تبدو مثل مغناطيس الثلاجة.

أولاد

اكتشفتُ في العشب الطويل ممرات مسطحة، ربما كانت ممرات لأخي، لذلك همستُ: «أخي، هل أنت هنا؟» والكبار العابرون يروننا، على بعد ثلاثة أقدام، لكننا في كاتدرائيات لانهائية وشاسعة.

يضحك الغراب: «أنا هنا، لا يمكنك رؤيتي، أنا أخضر اللون!»

بابا

قلتُ لصديقي المقرب إنها ستغضب مني إذ أمضيتُ يومًا إضافيًا في حفل كرة القدم في نهاية الفصل الدراسي، إذ سنواجه كل زحام المرور في العطلات. قال صديقي: عليك أن تتوقف عن التفكير بشأنها على هذا النحو، هناك فرق بين

الحزن والهاجس الذي لا ينفع.

قلت: لقد كنتُ مهووسًا بها بشكل لم ينفع.

قال: هل ثواعد أحداً؟ لكي تتحدث عن هذه الأمور؟

قلت: نعم

هل هم جيدون؟

جدًا.

كدتُ أضحك إذ تخيِّلت الغراب يدرس، أو ينقر على فاتورة، غراب أوصى به طبيب عام، أو متاح في الإدارة الصحية العامة. الغراب يفكر في وينيكوت(21)، يهز رأسه، لكنه يحب كلاين على مضض.

نعم، قلتُ لصديقي المفضل: لا داعي للقلق، أنا أحصل على المساعدة.

أولاد

في الوقت الذي ماتت فيه أمي، كان هناك إعصار وسقطت الكثير من الأشجار. في غابات الزان بالقرب من منزل جدَّتنا، كان هناك عدد كبير من الأشجار نصف الساقطة، وكانت تستقر بشكل مائل على تلك التي لن تتزحزح من مكانها.

واصلتُ الصعود، حتى تسبَّب وزني في انزلاق الشجرة المائلة، فسقطت حقالات ناعمة مبطنة بمساحات خضراء، وبعض أعشاش الفروع الحادة. كان أخي يصرخ: لحم ميت!

لا أتذكر ما إذا كانت هذه اللعبة هي فكرة أخي أم فكرة الغراب.

جاءَ أبي ليأخذنا إلى الغابة عند الغسق وقال: «إنك تنزف. اللعنة جسدك كله ينزف». كنتُ مخدرًا من البرد وكانت الخدوش تلدغهُ، وقال أبي لأخي إنه يفكر بجدية في سلوكه.

***

غراب

هذا صحيح:

ذات مرة كان هناك شيطان يقتات على الحزن. تصاعدت الرائحة الشهية للصدمة الخام والخسارة المفاجئة من أبواب ونوافذ منزل أرمل حزين.

لذلك شقَّ الشيطان طريقه.

في إحدى الأمسيات بعدما اغتسلَ الرُّضّع، وكان الزوج يخبرهم بالحكايات، طُرق الباب.

رات تات تات. «افتح، افتح، أنا من ٥٦. أنا كيث، كيث كوليريدج. أحتاج إلى استعارة بعض الحليب».

لكنَّ الأب العاقل كان يعلم أنه لا يوجد رقم ٥٦ في الشارع الصغير الهادئ، لذلك لم يفتح الباب.

في الليلة التالية حاولَ الشيطان مرة أخرى.

رات تات تات. «افتح، افتح، أنا من دار بارانثيس للنشر، أنا بول. بول جرايفز. سمعت الخبر، لقد صعقني الأمر إلى درجة أنه استغرق مني كل هذا الوقت حتى آتي. لقد أحضرتُ بيتزا وبعض الألعاب للأولاد.

لكنَّ الأب اليقظ عرفَ أنه كان هناك «بيتي» من دار بارانثيس، وكذلك فيل من دار بارانثيس، لكن لم يسمع أبدًا عن بول من دار بارانثيس، لذلك لم يفتح الباب.

في الليلة التالية ركضَ الشيطان نحو الباب، وميضٌ باللون الأزرق وطقطقة.

رات تات تات. طاخ! طاخ! «افتح! شرطة! نحن نعلم أنك هنا، هذه حالة طارئة، لديك خمس ثوان لفتح الباب وإلا اقتحمنا»

لكنّ الرجل المكروب بالدنيا يعرف القليل عن القانون، ويستشعر الكذب.

رحلَ الشيطان بعيدًا وتساءلَ عمّا يجب فعله بعد ذلك. لقد كانَ حقيرًا من صحيفة صفراء، لذلك توصّل إلى خطة قوية.

رات تات تات تات. طرق. طرق. طرق. «أولاد؟ هذه أنا. إنها ماما. حبيبيّ؟ هل أنتما هنا؟ يا شباب، افتحوا الباب، هذه أنا. لقد عدتُ. حبيبيّ؟ أولاد؟ أدخلوني»

ألقى الأطفال أغطيتهم مرة أخرى بعيدًا، وتأرجحت أرجلهم الصغيرة فوق حافة السرير، واندفعوا هابطين الدرج. امتلأت حجرات قلوبهم الصغيرة التي أعياها الشوق وأصابها وخز، وانضموا إلى الأسفل أمام، أمام، أمام كل هذا. تسابقَ معهم الأب الذي أسكرهُ صوت محبوبته.

كان صوتُها لاذعًا، مثل شره أفرزهُ تأثير القمر، يتدفق إلى كل المسام البائسة الشاغرة، ويفكك، ويفكك بشكل رائع.

«نحن قادمون يا أمي!»

أوقفَهم صديقهم وضيفهم، الذي كان غرابًا، عند الباب.

قال: حبيبيّ.

عزيزيّ، آسف يا حبّ، إنها ليست هي. عودا إلى السرير واتركاني أتعامل مع هذا. إنها ليست هي.

ساعدَ الفتَيان أبيهما المكوّم كورقة مبللة في الصعود إلى أعلى، واحدٌ تحت كل ذراع يوجّه انعدام الوزن، ثم ألقيا به للنوم. وجلسا عند النافذة ينظران إلى أسفل ويشاهدان ما حدث، وقد أعجبهما ذلك كثيرًا، فالأولاد سيظلون أولادًا.

خرجَ الغراب وابتسم، استنشقَ الهواء، أومأ برأسه قائلًا: مساء الخير، وركلَ الباب خلفه.

ثم أوضحَ الغراب للشيطان ما يحدث عندما يصدُّ الغراب دخيلًا إلى العش، إذا كان هناك أطفال في ذلك العش:

كرونك! بصوت عالٍ، قفزة ، نقرة على الأرض، رقصة مشتتة قليلاً، هونك، دوران وارتفاع، كرَمية القرص إذ يتأرجح إلى أعلى ولكن دون أن يفلت، بل يُدفع إلى الأسفل ثابتًا ومتفجرًا، ثم الدفع بالمنقار بقوة مطرقة في جمجمة الشيطان مع شرخ وفرقعة، ثم سحق العظام والدماغ والسوائل والغشاء، وصولًا إلى العمود الفقري المتدفق، والفقرة الشوكية، وسحق الفقرة، والبصقة وواحد - اثنان - ثلاثة - أربعة - خمسة يطول الطريق سريعًا مثل سمكة البيرانا، والعضّ والقطع وتفكيك مادة الشيطان، وتناثُر الدم والوحل الشوكي، والقذارة والبول، وتفكك الأحشاء، والجلد والطرق على أعصاب من الصوف المتشابك الأشبه بالمعكرونة المبهجة، والخدش، والتمزيق، القص، والالتهام، والتجشؤ، وصراحة أحبِّ رحلة الأذى والإيذاء، وبالنسبة إلى غراب، كان الأمر أشبه بصندوق جميل مليء بأوراق الرقائق والآيس كريم ونقانق الكاري وصغار طائر أبي الحنا، وكل علاج مقرف ومنشط جسديًا مثل رياح غربية فوق المستنقع، مثل قلعة الدردار المتأرجحة في مهب الريح، مثل ملذات الأسرة القديمة من النوع العميق.

ويقف الغراب بسعادة غامرة وسط بركة من القذارة، يمسح بصبر بقايا شيطان في حفرة صرف.

انتهى عمله، ووقفَ الغراب يتقافز صعودًا وهبوطًا في الشارع مُصدرًا تحذيرات، بينما يصفق الفتَيان اللذين يرتديان المنامة ويهتفان - خلف زجاج صامت - من نافذة غرفة النوم. يُصدر الغراب تحذيرات للمدينة الواسعة، وتحذيرات ملحّنة، وتحذيرات بعدة لغات، وتحذيرات بحواف نازفة، وتحذيرات مرحة، وتحذيرات بالرقص وتحذيرات مبطنة، تلك التهديدات والشعوذة والتورية والقبح القديم المذهل.

يتجوّل الغراب باحثًا عن بعض الطعام، راضيًا عن دفاعه عن العش.

بابا

يا لها من نكتة سيئة، حلم سيء، قصيدة سيئة، مختلفة جدًا، هذا الـ كر

كر

كر

كر

كر

إي. أك. إك. أي. إيفيس. إي تور.

كر

كر

كر

كر

يينغ

أولاد

كان شابًا وصالحًا ومضحكًا في بعض الأحيان. كان صامتًا ثم غاضبًا، ثم حاقدًا ثم غريبًا، ثم أصبحَ مهووسًا وجاءتهُ رؤىً، فكتبَ وكتبَ وكتب.

قال الغراب: تعالَ وانظر إلى هذا. يبدو أنَّ والدك قد مات!

تسلّلنا إلى الغرفة وكانت تفوح منها رائحة فأر متعفن، وكانت هناك منافض سجائر في اللحاف وزجاجات على الأرض. كان أبي مبعثرًا مثل لعبة مكسورة، وكان فمه رماديًا مترهلًا وانهارَ مثل كعك يوركشاير فاسد.

أبي، هل أنتَ ميت؟

أبي، هل أنتَ ميت؟

أجابت ضرطة طويلة منتحبة، وطردَنا أبي.

قال أخي: بالطبع إنه لم يمُت، أيها المعتوه.

قلت: لم أقل إنَّه مات.

قال الغراب: «عفوًا».

قال أبي: لستُ ميتًا.

بابا

عزيزي الغراب

اليوم رسمتُ صورة أنا فخور بها حقًا. إنها صورة لكَ وأنت جالسٌ على كرسي، ممسكٌ بدمية يد تيد(22). يجلس أمامك تيد على كرسي، ودمية لها شكلك. الشبه رائع!

دمية يد تيد الغراب لديها فقاعة من الكلام. دمية الغراب تقول: «تيد، رائحتك نتنة كمتجر جزارة!»

أعتقد أنكَ ستحبه.

أولاد

حكى لنا أبي القصص، وتغيَّرت القصص عندما تغيَّر أبي.

أتذكَّر قصة عن صائد الفئران. سمَّرَ صائد الفئران ذيول الفئران الميتة على لوح سريره، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة. قتلَ صائد الفئران ملك الفئران، والجميع يعلم أن الفأر الملك لا يمكن أن يُقتل ما لم تغلِ قلبه. بينما كان صائد

الفئران نائمًا، فكّ ذيل الفأر الملك نفسه من اللوح الأمامي، وذهبَ بطول الخط وهو يضفر ذيول زملائه المتوفّين ليصنع حبل مشنقة، وقاموا بخنق صائد الفئران. قال أبي: صائد الفئران، فأر، ما رأيكَ في ذلك؟

أخبرَنا أبي بالقصص، وتغيّرت القصص عندما تغيّر أبي.

أتذكّر قصة كاتب ياباني سقطَ على سيفه.

كانَ حادًا إلى درجة أنه اخترقَ الدم، وخرجَ من ظهره نظيفًا.

أتذكّر قصة عن مُحارب أيرلندي قتلَ ابنه عن طريق الخطأ، ولكنه أدركَ أنه لا يمانع ذلك كثيرًا، لأنه كان في مصلحة الابن.

بابا

ثمة مسطّح في المطبخ أتّكِئ عليه بينما يأكل الولدان حبوب إفطار ويتابيكس. إنه بعيد قليلاً عن المساحة المسطحة التي كانت تميل عليها زوجتي.

الأمر شديد الصعوبة، ولا توجد طريقة يمكنني أن أعبّر بها إلى أي مدى سيستمر ذلك، لكن لدينا مخاوف كبيرة على من علقوا في المدينة.

يستمع الولدان إلى الأخبار. هما بحاجة إلى أن يعرفا. أخبرَهما الكثير عن الحرب.

لا يمكن تصوُّر الخسارة والألم في العالم، لكنني أريدهما أن يحاولا.

الغراب

إلى مذكّراتي الأدبية المدفوعة بالأصوات إذا جازَ التعبير:

لطالما أحببتُ الانتظار، في أوقات الظهيرة، وحيدًا في منزلهما، منتظرًا إياهما أن يعودا من المدرسة. أعترفُ أنني قد يتمّ اتهامي بإظهار أعراض تتعلق بخيالات أبوّة يائسة.

لكنني غراب، ويمكننا أن نفعل الكثير من الأشياء في الظلام، يمكننا حتى أن نلعب عند ماما. لقد رفعتُ منقاري لتوِّي، أنظرُ إلى هذا وذاك، رافعًا الجوارب الموسمية وقطعة البازل. اعتدتُ أن أتبرَّز بشدة في أماكن كنتُ أعرف أنه لن ينظفها أبدًا.

أول شيء يمكنُ أن أسمعه هو التحذيرات المتشابكة العالية، وترددات الثرثرة والغناء والبهجة. الولدان. ربما كان حدثُ ارتطام عندما اصطدما بالباب الأمامي، ثم التقطا أنفاسهما في انتظار بابا. كان سيفتح الباب، نقرة واحدة، وتعجّ الشقة بالضوضاء، أحذية وحقائب ملقاة، من فضلكَ لا تتركها هناك، قلتُ: لا، اتركها هناك، هيا، شيب، شوب، شيب، شوب اصعدا درجاً.

هناك تبجُّح جميل كسول للرجال الصغار المتعبين، فهم يتدحرجون ويتقلبون ويتحطمون في الفاصل قبل البدء في البحث عن الطعام أو الترفيه، وكنتُ دائمًا ممتلئًا بتفاؤل غير معهود وبابتهاج جيد إذ أُراقبهم وهم يتراجعون دون وعي إلى منازلهم.

والسكَّر! في الأمسيات عندما كانت تُقدَّم لهم الحلوى، أو حين يصعدون إلى الخزانة وينهبون - مثل الغراب - مخبأ والدهم.

إذا لم تكن تشاهد أطفال البشر بعد تناول كميات كبيرة من السكَّر، فيجب عليك ذلك. إنها تثيرهم وتشوِّشهم، بفرح شديد، لمدة ساعة أو نحو ذلك، ثم ينكمشون على نحو غريب، كأشبال الثعلب المخمور بالدم.

أولاد

قمنا بجمع الأربطة المطاطية التي سقطت من ساعي البريد. كنّا نظن أننا سنبني كرة عملاقة، لكن استسلمنا.

شيَّدنا القواعد والمعسكرات والأوكار والملاجئ والحصون والمخابئ والقلاع وعلب الأدوية والأنفاق والأعشاش.

رأينا كيف قدمت لنا شركة لندن ولندن للرعاية أمهات محتملات يرتدين الجينز والقمصان المخططة والنظارات الشمسية، لذلك راقبناهنّ وأحببنا هذا النوع من إيذاء الذات المتبلّد. كنّا نتسامح مع جليسة الأطفال التي قالت: «كيف يمكنك أن تضحك على ذلك، إنه أمر محزن للغاية؟»

قمنا بالتوازن على ظهر الأريكة، وبالغوص بالقنابل على السجادة، وصرخَ أبي: تعتقد أن هذا لا يضرّ ركبتيك ولكنه يحدث، وعندما تكون في مثل عمري ستواجه مشاكل خطيرة في الركبة حسنًا، ولن أدفعكَ في عربة لتدور مثل المتسولين البائسين، وإذا كنتَ تعتقد أنني أكذب، فيجب أن ترى ركبتيّ جدّتك، مدمّرتين مثل ضربة جوية في معركة، بالكاد تستطيع الركوع، بسبب إضرارها بمفاصلها منذ طفولتها، بسبب رقص الباليه في الغالب، ولكن بسبب القفز على الأريكة أيضًا، فقطعوا ركبتيها، هذا قبل الجراحة بالليزر، وإذا كنتَ لا تصدقني يمكن أن يحدث لك ذلك.

توقفنا عن الاستماع، وواصلنا القفز.

بعد ظهور الجراحة بالليزر ولكن قبل البلوغ، قبل الوعي بالذات، قبل المدرسة الثانوية، قبل أن يدخل المال أو الوقت أو الجنس. قبل أن تصير اللغة فخًا، بل كانت متاهة. قبل أن يكون أبي رجلاً في السنوات الثلاثين الأخيرة من حياته. حقًا، عند التفكير، إنه أنسب وقت ليفقد المرء أمه.

بابا

قال الغراب: «سأخبرك بهذا مجانًا».

«حسنًا» (أحاول أن أعمل، وأحاول أن أقلل اهتمامي بفكرة الغراب قليلاً منذ أن قرأت كتابًا عن الأوهام الذهانية)

«إذا كانت زوجتك شبحًا، فهي لا تبكي في خزائن وأركان هذا المنزل، فهي لا

تتأرجح في التحسر على فقدان الأمومة أو الألم المرير إذ ترى الولدين يعيشان بدونها».

«لا؟»

«لا، صدقني أنا أعرف القليل عن الأشباح»

«أكملْ»

«ستعود أمامكَ. ستكون في الأيام الذهبية لطفولتها. الأشباح لا تطارد بل ترجع. تمامًا كما لو كنت بحاجة إلى النوم، تفكر في الأشجار أو المروج ، فأنتَ تأخذ من رمزية الشعور بالأمن والرضا الفطريين ملاذًا فوريًا. هذا الملاذ تحديدًا هو المكان الذي تذهبُ إليه الأشباح».

أنظرُ إلى الغراب. الليلة هو بوليفيموس(23) ولديه عينٌ واحدة فقط، ثماني كرات براءة اختراع مصقولة.

«هيا أخبرني إذن»

«حقًا؟»

«أرجوك»

«أنا لستُ قردًا مهرجًا»

«أخبرني»

«إنها أشبهُ برائحة، أو ذاكرة متزامنة، شيء من هذا القبيل..»

يجلس ساكناً. توقفت رقبته عن الحركة، وامتنعَ منقاره عن الخز. لأول مرة منذ وصوله توقفَ عن اقتراح الاستعداد المستمر للعنف الجسدي.

يجلس ساكنًا كما لم أرهُ من قبل، كحيوان فارغ، ميت.

«صحيح، ب، ب، ب. انتظر، طبول، باراصورولوفوس، انظر إلى ماما سايبيس، ولتنتظر الأعراس، تجاهل هذا، هلمّ بنا، مواعيد المسرحيات! مبنى الصليب الأحمر، أرضية خشبية، أحذية قماشية. كعك، براونيز. بسكويت رقيق. فطائر التين. مسابقات رقص. فطائر التين. حياكة للمبتدئين. حبر غير مرئي».

طارد! أقصد علّم أو أمسك! تعرفُ ما أعنيه. يتأرجح الحبل. يدا والدها الكبيرتان.

حمامات صخرية (يوركشاير؟). السلطعون، الشباك، السردين، الاختباء، الانتظار.

العد (العداد؟ الخرز؟)

الترامبولين / حلويات اليانسون / البيض المطلي

شحذ قلم رصاص؟ السحر البعيد، روبرت.. شيء ما، روبرت الحصان الوردي.

نجلس في صمت، وأدركُ أنني أبتسم.

أتعرّفُ على بعضٍ مما يقول. أنا أصدّقه. أنا أصدّقه بكل سرور، وأشعر أنه مألوف للغاية.

«شكراً لك يا غراب»

«كله جزء من خدمتك»

«أشكرك حقًا يا غراب»

«على الرحب والسعة. لكن من فضلك تذكّر أنني أسطورة أغاني تيد، غراب سكرة الموت، من فضلك. آكِل الآلهة، ولاعق القمامة، وقاتل الكلمات، ومدنّس الجثث، وقنبلة حسابية لعينة، وما إلى ذلك»

«لم يدعوك أبدًا باللعين»

«كم أنا محظوظ!»

أولاد

ذات مرة تعقّد بعض الفتيان أن ينسوا أشياء عن والدهم، فتحمسوا لنسيان أشياء عن والدتهم.

كانت هناك الكثير من المعادلات والمعاملات في أسرهم الصغيرة.

حلمَ أحد الأطفال أنه قتل والدته. لقد تحقّق من أنه ليس صحيحًا، ثم وضعَ ملعقة تقديم فضية ثمينة ورثها والده في سلة المهملات، لم يلحظها أحد، فشعرَ بتحسن.

فقدَ أحد الأطفال صندوق الغداء العزيز من والدته قائلاً: «حظًا سعيدًا». بكى وحده في غرفته، ثم ألقى سيارة لعبة على ملصق كولترين(24) الذي أطّره والده، فتحطّم، وشعرَ بتحسن. مسحَ الأب كل الزجاج، واستوعبَ الأمر تمامًا.

كان هناك الكثير من العقوبات والتوقعات في أسرتهم الصغيرة.

بابا

الولدان يتعاركان

أولاد

أيقظَ البرد أحدهما، فأيقظ الآخر قائلاً إنّ الأب قد رحل، ووافقَ الآخر. لقد رحلت والدتهما -كانت إمّا مستلقية في الثلج ونامت حتى الموت، أو قبضَ عليها الذئاب- لذلك عرفا القليل عن رائحة المنزل الصغير وأصواته عندما يرحل أحد الوالدين، وكانا على حق، رحلَ الأب.

قال أحد الولدين: ربما سيعود، ونفشَ الصبي الآخر شعرهُ وابتسم بعينيه: لا، لن يعود. الأب الراحل هو أب رحلَ إلى الأبد.

لذلك غنّيا الأغنية المعتادة أثناء ترتيب المنزل وتجوّلا فيه، ورتّبا الأغراض، وارتديَا جميع ملابسهما حتى بدوا أكثر بدانة مما كانا عليه، ثم انطلقا.

سارا لمدة ثلاثة أيام، ولم يناما إلا وهما يتدحرجان على التلال، لذلك لم يكونا ساكنين. لقد فقدا أجسادهما الطفولية، وأطلقا لِحيتاهما، وظهرا في طبقات من الملابس بحيث أصبحا رجلين عاريين في اليوم الرابع، عندما غابت الشمس.

قال أحدهما للآخر: انظر إليك. قال الآخر لأخيه: انظر إلى أعضائنا..

جاءا إلى كوخ صغير وطرقا الباب. بمجرد أن أجابت المرأة شديدة الجمال، علما أنهما لم يكونا مستعدين لأي شيء آخر إلا أن تكون أمّاً، لذلك انطلقا إلى المنزل، في الأسبوع الأول، فوق التلال، عبر الغابة المجمدة، إلى المنزل، صعدا السلالم، إلى الفراش بعيون مغلقة، وعندما استيقظا، كان والدهما يطبخ الفطور.

بابا

ذهبنا إلى عرض الطيور الجارحة. في الميدان. ريفٌ ناءٍ في مكان ما، مع ستةٍ من كبار السن ومرشدٍ بدين بميكروفون «ها هي تأتي، نجمة العرض!»

كان أولُ طائر يخرجُ نسراً شجاعاً مذهلاً، ضخماً، بطول ستة أقدام. قلنا: «أوه نعم. أوه نعم». كان الولدان مذهولين.

«والآن انظروا كيف تقرّر ما إذا كانت ستقوم بالـ أوو ووب أم لا! هناك إنها تذهب! حلّقي! حلّقي! ها هي فتاتي تنطلق!»

وبينما تحلّق، ارتفعت بعيدًا، وارتفعنا معها.

أمسك الولدان بالمقاعد البلاستيكية بقوة، بينما تتراجع الخدعة المؤقتة للطائر الأسير الذي يؤدي العرض، وقد حمّسني النسر الشجاع بروعةِ بُنيته الجسمانية.

«أوه، ها أنت الآن، من هذا؟ أوه، يا إلهي العزيز، أيها الفتى الصغير اللذيذ، اعذروا لغتي يا رفاق. في فصل الربيع، يحمي الغراب النتن البيض في هذا

الحقل، وقد يحدث الأمر مع نسر دموي، كيف يحدث ذلك! هذا، سيداتي سادتي هو وغد صغير شجاع. هذا غراب «يضرب نسراً شجاعاً!»

التفتُّ لأرى الولدين يُمسكان عفويًا بأيدي بعضهما.

سيداتي وسادتي أقدّم لكم معجزة الطبيعة الدموية. هذان عصفوران يُومئان لبعضهما بعضاً باحترام كبير. ربما كنتَ أثقل مني بكثير من الكيلوجرامات اللعينة، أكبر مني أربعين مرة، ولكن إذا اقتربتَ من بيضي، فسأعلّمك شيئاً أو اثنين عن الطيران!

يستعد ثلاثتنا، بحفاوة بالغة.

صرخنا: «هيا يا غراب!»

قال مُحبُّ الطيور ذو الوجه الأحمر، صاحبُنا، مرشدُنا: «لم لا؟.. لم لا بحقّ الجحيم؟ هيا أيها الغراب! انطلقْ يا غراب! انطلقْ!»

ربما كان هذا أفضلَ يوم في حياتي منذ وفاتها.

أولاد

ذات مرة كان هناك ملك له ولدان. كانت الملكة قد سقطت من باب العليّة وحطمت جمجمتها. ولأن الخدم في المملكة كانوا مشغولين بتلميع التماثيل للملك، فقد نزفت حتى الموت. غالبًا ما كان الملك مشغولاً برفع اللعنات العبثية وبمنع الحروب الصغيرة. وهكذا كان الأمراء الصغار يقاتلون.

صَفعوا صفعة صغيرة، ضربة صغيرة. كان الأمير الأصغر بدينًا (المسمَّى إيفان الكسول أو الوحش المذنب أو الذئب الجشع)، يحرِّك الكرسي ويُرسل شقيقه إلى الأرضية الرخامية الباردة. الرحلات، ركلات الساق، الدغدغة.

ثم أصبحت المعارك أفضل حينًا وأسوأ أحيانًا إذ يفتقدون والدتهم. الرجل الوسيم (المسمى أمير شرفي، أو نسر خامل، أو غزال جائع) ينحني فوق أخيه

على إبطه السمين، ويُدحرج ركبتيه على العضلة المنزلقة. كانوا يرقدون بمواجهة بعضهم على مقاعد غرفة العرش، ويركلون ركلة ركلة ركلة ركلة حتى يبكي أخوه الذي يتوسل الرحمة بقوة أكبر.

ثم يعضُّون، ويحاولون إغراق بعضهم بعضاً، وحرق شعر بعضهم بعضاً. ربطوا بعضهم بعضاً، لفُّوا معاصمهم، تقابلوا وبصقوا، ثم عثروا على كتاب مسموم وتناوبوا على إمراض بعضهم بعضاً. ثم شنقوا بعضهم بعضاً. ثم سلخوا بعضهم بعضاً. ثم صلبوا بعضهم بعضاً. ثم غرسوا أظافرهم الصدئة في جماجم بعضهم بعضاً.

ذات يوم، صادفَ الملك، الذي كان يتجول في متاهة القصر، أبناءهُ الملطخين بالدماء مسلحين بأقواس، وكل أمير يشتعل غضبًا بنيّة القتل.

سألَ الملك: «أعزائي الصغار، يا شباب هولدن الرائعين، لماذا تلعبون بهذه الطريقة؟»

«لأننا نفتقد والدتنا»، هكذا غنّى الأولاد الصغار في انسجام تام.

راحَ الملك يزأر ضاحكاً، وربَّتَ على بطنه المنتفخة.

«يا عفاريتي الأعزاء الصغار، أمامكم الكثير لتتعلموه حول معنى أن تكونَ ملكًا. لم تكن الملكة والدتكم أكثر مما كانت عليه أمي. الله أعلم أي عاهرة بصقتكم، لكنها بالتأكيد لم تكن صديقة صديقتي التي أدعوها ملكة.

لذلك تصافحَ الأولاد، وهم مرتاحون تمامًا، واستمروا في دورهم كملوكٍ ناجحين للغاية على ممالك كبيرة ومنتصرة.

غراب

كريكل! كراكل!

اقفز! شمّ! وهاجم! أدخل الصناديق، أشدّ بالترانيم.

لقد فقدتُ زوجة مرة، ومرة واحدة يفقد الغراب زوجته مرات عديدة. أوه، اللعنة! تذكرتُ شيئًا.

لقد جثا على ركبتيه من تنتاجل كارليل(25) إلى موركامب أوكسفورد، محاولًا تسميم نفسه بالتوت المحرم والكنائس الجميلة. لكن فضلات إنجلترا أنقذتهُ. أطلقتهُ خطوط لاي(26) عبر البلاد دون وقت للحزن، وأطلقتْ كابلات الكهرباء باقات فضفاضة من العظام شديدة السواد والريش الأسود، وأمطرت الغربان الأخرى من السماء عاصفة من الغربان الموتى، وحدَّق إلى أعلى حوض محترق مليء بالطيور. لكنَّ غرابَنا اختارَ أن يقضم علب الأوقية الذكرية ذات النكهة، والكاميرا، ومرت عاصفة النار فوق رأسه، كالتاريخ المحتوم على العامل. ثمر العليق، الكشمش الأحمر، توت، خوخ شوكي. مشروب، برقوق، سلطعون، تفاح، كدمات، جلطات، بلغم وأورام وثمرة السفرجل.

ينظر في بركة من الزيت ويرى منقاره بألوان زاهية وبخطوط حمراء وخضراء وأرجوانية وبرتقالية. مثل طائر البَفن اللعين.

يفتح فمه ليصرخ ويخرج اللحن الإنجليزي الجميل، أغنية حديقة، مثل طائر الزرياب أو أيفور غورني(27).

إنه حلم آخر من أحلام الغراب السيئة.

أولاد

ذات مرة استقلَّ والدنا الحافلة إلى أكسفورد ليسمع بطله تيد هيوز يتحدث. كان هذا عندما كان تيد هيوز باهتًا وميتًا تقريبًا، وكان أبي قد أنهى دراسته لتوّه. لم يسبق له أن ذهبَ إلى أكسفورد من قبل، وقد صُدم بوجود متاجر عادية ومطاعم ماكدونالدز وأشياء أخرى. لم يصدق وجود أشخاص يلقون صفائح خالية في محطة الحافلات. كان يعتقد أنه سيكون هناك فقط أساتذة يُمعنون

التفكير في الأمور.

وصلَ مبكراً بثلاث ساعات، لذا اشترى بعض الأسطوانات من متجر تسجيلات عصري. لقد حصلَ على شيء لم يكن يريده لأنه كان مُحرجًا جدًا من تصحيح معلومات الرجل الذي يقف خلف المنضدة. ذهبَ إلى حانة وشربَ لتراً تقريبًا من جعة غينيس، ودخّن السجائر الواحدة تلو الأخرى.

كان والدُنا هادئًا وماكرًا ورومانسيًا، وكان مسموحًا حينها بالتدخين في الداخل.

أصيبَ أبونا بخيبة أمل بسبب حجم وحداثة أكسفورد. اعتقدَ أنه قد يصطدم بتيد أو ببيتر ريدجروف قبل القراءة. ثم شعرَ بالحرج من سذاجته، وحصلَ على نصف لتر ثالث. كان يقرأ أوسيب ماندلستام(28) ويضع خطوطاً أسفل الجمل ويطوي الصفحات، وسجّل أجزاء صغيرة في دفتر ملاحظاته. ظنَّ أن الحانة ستعجُّ بالمفكرين الشباب الذين يتصرفون بنفس الطريقة، لكن الحانة كانت فارغة إلا من رجل يرتدي قميص توتنهام بصحبة كلب بيغل.

كان والدُنا في حانة قذرة بجوار محطة الحافلات.

كانت لديه آراء حداثية بشأن هيوز وبلاث. من بين تلك الآراء أن الأمر في كل مكان. لقد حانَ الوقت للتخلص من كل هذا الهراء وتقييم الشعر دون مشاحنات حزبية في السيرة الذاتية. أيَّد أبونا تيد. في الحافلة المتجهة إلى أكسفورد، تخيَّل بعض الحجج القوية في حانة مغطاة بألواح خشبية مع مجموعة من جماهير بلاث. سيقولون: «حسنًا، حسنًا، سنقبل ريفر».

«يبدو منصفًا»، اعتادَ أبي أن يقول: «سنُعطي عملاقَ رُودس فرصة أخرى»

لكي نكون منصفين مع والدنا، فقد كان أصيلًا هادئًا وماكرًا وغيرَ معاصر بشكل فادح. كان علينا أن نتخلص منه بأقصى ما نستطيع. كنّا على اقتناع بأن هذا هو

ما تريدهُ أمُنا. كانت أفضل طريقة لحبه ولشكره.

حصلَ مع تذكرته على مشروب مجاني.

احتفظَ بتذكرته، وما زالت موجودة في ملفّه المعنون بـ «تيد».

جلسَ في منتصف المسافة من المقدمة.

انتظرَ بطلهُ.

(رجل كبير يرتدي معطفاً سميكاً، ربما سترة ماركة باربور، وربما حتى نفحة من مزرعة ديفون أو مسحة من أحشاء السلمون في الجيب. لقد تلاشت زهرة بريمولا فيريس الأيقونية كما يعلم أبي، ولكن كيف سيكون شكل شَعره؟ ربما قصّة شعر عسكرية. وهل سيدور كل شيء حول شكسبير؟ أم ستكون هناك قصيدةٌ أو قصيدتان؟ قصيدةٌ جديدة أو اثنتان يا تيد؟ مِن أجلِ جمهورِكَ من الشباب؟ للفتيةِ الذين يضعونكَ في مصافّ دون وميلتون(29)).

عندما وصلَ تيد، بدا أنه ليس في أفضل حال. مرَّ الحديث بضبابية خاشعة. لم يتذكر الكثير منها أبدًا، باستثناء أنها كان فيها من ثقل شكسبير، وكانت إحدى الجماعات معادية لتيد.

لقد حانَ الوقت لطرح الأسئلة، وقد احمرّت وجنتا أبينا البالغ من العمر ثمانيةَ عشر عامًا وتعرّقت راحتا يديه أمام جمهور جاهز لطرح الأسئلة. في الخلف سؤال عن كاليبان والإمبراطورية. نعم السيدة في الجانب، سؤال عن الآراء السيئة. نعم، السيد الجالس هنا في المقدمة، قُوبلَ سؤالٌ حول سيلفيا(30) بتنهيدة من الجمهور الذكي المحبّ لتيد(31)، ورأى الرئيس أنه «غير مناسب». ثم أخيرًا.. نعم أيها الشاب في المنتصف.

وقفَ أبي، وهو أمرٌ مضحك لأنّ أيّاً من الآخرين لم يفعلوا ذلك، فأثارَ وقوفه ضحكاتنا.

كان سؤاله طويلًا جدًا وجادًا جدًا، ومشوشًا بعض الشيء، لكنه كان عن الحرب النووية والرقابة والتلوث وجيمس الأول. أومأ تيد برأسه، وابتسم، وأومأ برأسه، فقال الرئيس: «شكرًا لك، رائعة، إنها مقالة أكثر منها سؤالًا، لكن شكرًا لك. يؤسفني أن أقول إن الوقت قد نفذ».

جلسَ أبي على عظام مؤخرته مجروحًا، وقد احتبست الدموع في عينيه.

يبدو أنَّ أمي بكت مرة واحدة عندما روى هذه القصة، لكن انتظر! انتظر! كلنا نصيح. انتظر يا أبي، أيها الوغد المأساوي! لم يوبخك الرئيس! هذا هو السبب في أننا نحبك ونسخر منك. هناك خاتمة سعيدة.

بينما يجرُّ والدنا قدميه في طريقه إلى الخارج، ربَّتت يد شاعر كبيرة على كتفه، وغطَّت أبانا السعيدَ حلاوةُ لهجة تيد هيوز شديدة الدفء، والقادمة من يوركشاير.

قال هيوز: «نعم» وهو ينظر إلى عينيّ أبي.

«نعم؟» سألَ أبونا.

قال هيوز: «نعم»، ثم ابتعد.

ونسيَ والدنا ما سألهُ، وماتَ تيد هيوز، وكذلك فعلتْ والدتُنا، وأخي يروي قصة أكسفورد على نحو مختلف عن روايتي.

الجزء الثالث

الإذن بالمغادرة

غراب

هذه قصة عن كيفية موت زوجتك.

بابا

غيرتُ رأيي. لا أرغبُ في سماعها.

غراب

لكن هذا هو بيتُ القصيد. لقد صدمت رأسها.

بابا

يا غراب، حقًا، لا بأس. أنا أعرف. لا أحتاج أن أعرف.

غراب

تخيَّل هذا

بابا

عزيزي غراب

لقد وقفتَ مرة بجانب سريري، وأخذت تزقزق وأخبرتني ألا أتزوج مرة أخرى أبدًا، لتغلق على قلبي وتربط قضيبي. نحن الغربان نتزوج أحاديًا، كما قلتَ، ونقرتَ على جبهتي بمنقاركَ الطويل.

ثم بعد ذلك وقفتَ بجانب فراشي وأخبرتني قصة تيد. لقد تحدثتَ بصوت مدرس من يوركشاير وأخبرتني أن أعاود البحث عن حبيب، وأغيّر أفكاري، وأفكّر في الولدين. فلتمضِ إلى الأمام، قلتَ. يجب أن تتعرف على شابة ودودة

تحب وقع كلمة «زوجة أب». فلتكن علاقة عابرة.

رميتُ اللحاف ورفعته وأرجحته وبصقتُ عليك لكنكَ كنتَ في مكان آخر، واضطررتُ إلى النوم محطمًا بين ما قلتَهُ وما كنتُ أعتقده.

لا نوم.

حوافٌ حادة.

رائحة الفم الكريهة.

أولاد

بمجرد قيامنا ببعض الرسم على طاولة المطبخ، قال أبي: «لا يمكننا أبدًا أن نقدّر بيكاسو حق قدره»، وقال أخي: «إنه غود(32) يا بابا!» راحَ أبي يضحك حتى أصابه التعب تقريبًا.

لقد أسأنا إليه وسخرنا منه، لأنه يبدو أنه يذكّره بأمّنا.

ذات مرة ذهبنا إلى مكان سري مع جدّتنا. جدار ضخم شبه دائري من الرمال الحمراء كان تحت البحر ذات يوم، إذا ركلتهُ فسينهار. كان هذا في وسط حقل أصفر لامع من بذور اللفت.

لم يأتِ أبي، وهذا أثّر فيّ.

لكن لم يكن ذنبهُ.

بابا

أصيبت بالإنفلونزا. لم تعتد المرض، وكان الولدان صغيرين وقد تساقطت الثلوج ولم تستطع تحمُّل لهونا في المنزل، لذلك ارتدينا ملابسنا وذهبنا للتزلج في الحديقة. كنّا مثيرين للشفقة بدونها. لم يكن الولدان يعرفان مكان قبعاتهما. لم يتمكّنا من إدخال قفازاتهما في ستراتهما المنتفخة؛ لا أريدُ أن أرى أولادًا

آخرين، أولادًا أكبر يتزلجون على التل. كنتُ شخصاً ميؤوساً منه.

لقد أخرجتهما بدون أعضائهما التناسلية، لذا قبل أن نصل إلى الطريق، كانت أصابع أقدامهما الصغيرة تؤلمهما. تذمّر كلاهما وشعرنا جميعًا، ثلاثتنا، أن الأمور بدونها لم تكن تعمل كما ينبغي. لقد أشفقا عليّ. شعرتُ بالحرج الشديد لأنّ تألُّقي كأبٍ قد فضحهُ اعتمادي الكامل عليها. ربما لو كنتُ أعرف أنها كانت تمهيداً لبقية حياتنا لقلتُ: ابتهجوا أيها القذرون، أو ساعدوني. أو خذوني، خذوني بدلاً من ذلك من فضلكم.

بابا

أشياء لا يخشاها الغراب:

تيد.

السيرة الذاتية لسيلفيا.

مزارع الرياح.

أطفال بلا أم.

النسور الجَسورة.

طفل القطران.(33)

الفزّاعات.

رجل.

موت.

الأشياء التي يخافها الغراب:

الطلاق.

المؤامرة.

الأعمال.

الكاثوليك.

سلك شائك.

مبيدات حشرية.

نميمة.

التحنيط.

كيث ساجار.(34)

بابا

بعد حوالي عامين، وفي وقت مبكر جدًا، ولكن في الوقت المناسب تمامًا، أحضرتُ إلى المنزل امرأة، وهي باحثة في سيرة سيلفيا بلاث، التقيتُ بها في ندوة.

كانت مضحكة وذكية، وبذلت قصارى جهدها في تخطي الموقف السيئ. كان علينا أن نكون هادئين، إذ كان الولدان نائمين في الطابق العلوي.

كانت ناعمة وجميلة، وجسدُها مختلف عن جسد زوجتي، وأنفاسها برائحة البطيخ. لكننا كنّا على الأريكة التي اشترتْها زوجتي، نشرب النبيذ من الكؤوس التي أعطيتُها لزوجتي، تحت اللوحة التي رسمتْها زوجتي، في الشقة التي ماتت فيها زوجتي.

لم أمارس الحب مع العديد من النساء، ولم أتقن ممارسة الحب إلا مع زوجتي، وأقوم بأشياء تحبها زوجتي. لم أرغب في فعل هذه الأشياء، أو التفكير فيما إذا كان يجب أن أفعل تلك الأشياء أو أفكر في التفكير نفسه، مما يعني أنني ضربتُ

أسنانها، ثم ركعتُ على فخذها، ثم اعتذرتُ كثيرًا، ثم انتهيتُ بسرعة كبيرة، ثم حاولتُ جاهدًا، ثم بجهد أقل.

لكنها كانت طيبة وجميلة، وجلسنا ندخن سجائرها الثقيلة قربَ النافذة، ونتحدث عن كل شيء قرأناه غير كتابات سيلفيا وتيد أو ما كُتب عنهما.

لقد غادَرتْ وشعرتُ بالتوتر بسبب شعوري بالبهجة. تجولتُ في أرجاء الشقة كما لو أنني التقيتُ بها للتو، وخطوتُ خطوات طويلة وفحصتُ الأسطح بشكل مبالغ فيه، وتفقدتُ الولدين.

***

عندما نزلتُ، كان الغراب على الأريكة ينتحلُ شخصيتي، وهو ينتفض ويئنّ.

أولاد

يبدو أن الأمر يحتاج عشر سنوات لكي نحدده، قطع كبيرة من التصدع، ثم فتحات كبيرة من الملنخوليا.

مثل أي شخص آخر، حقًا.

كنّا نظن أنها ستحضر يومًا ما، وتقول إنّ كل هذا كان اختبارًا.

كنّا نعتقد أننا سنموت كلانا في نفس العمر الذي كانت فيه.

كنّا نظن أنها تستطيع رؤيتنا من خلال المرايا.

اعتدنا أن نعتقد أنها كانت عميلة سرية ترسل أموالاً إلى أبي، وتطلب معلومات محدّثة.

كنّا حريصين على أن نَزيد سنّها ولا نُوقف عمرها أبدًا. حرصنا على تسميتها جدّتي عندما صتر أبي جدًا.

نأمل أن تحبّنا.

بابا

فتايَ العزيز..

في أحد أعياد الكريسماس بعد حوالي ثلاث سنوات من وفاة والدتك، كنتُ قد وضعتك أنت وأخوك في الفراش، وقد تمددتُ على الأريكة أشرب النبيذ الأحمر وأقرأ ر.س توماس عندما دخلَت وقالت: مرحبًا. كانت عارية باستثناء جوربيها (لم تكن جميلة المظهر أبدًا حتى عندما كانت على قيد الحياة). ترنَّحت على السجادة وتعثرت فاصطدمتْ ركبتها بطاولة القهوة. صعدنا إلى الطابق العلوي ووضعتُ بعض كريم أرنيكا على الكدمة، وتشاجرنا حول الفوضى في خزانة الأدوية. ثم ملأنا جواربك بالهدايا ومشينا على أطراف أصابعنا في غرفتك لنضعها بجانب فراشك. ذهبتُ للنوم وجلستْ والدتك تقرأ لبعض الوقت.

هذا صحيح تمامًا.

هل أنتَ بخير؟ لا تقلق بشأن القيام بالأشياء أو عدم القيام بها، فهذا لا يهم.

مودَّتي

بابا

أولاد

جلسَ أحد الأخوين بهدوء داخل أشلاء الأخ وحاولَ جاهدًا لكنه شعرَ بالغضب. هذا أنا. لقد مررتُ بسنوات قليلة صعبة، الآن أنا بخير، لكنني هادئ ولستُ عاطفياً. أخي ينادي كررررا ويتحدث معهم. تلطختْ أبشع سنوات حياتي بالغراب. وإليكَ سرًا بسيطًا. لم أُفصح عنه حتى من قبل. أنا لا أحبُ هيوز ولا أحبُ الشعر.

جنون. طرافة. إنكار. تساهُل. كلام فارغ.

أخذتُ بندقية هوائية إلى أحد الحقول عندما كنتُ مراهقًا لأطلق النار على الغربان. أطلقتُ النار على واحد وأردت الاستمرار. كنتُ أرغب في تجميع كومة نار من الطيور السوداء النافقة ذات المناقير البشعة. لكنها شديدة الذكاء، لقد عرفت ما كنت أفعله وظلت بعيدًا بما يكفي.

عدتُ إلى الغراب الميت في الوقت المناسب، لأراهُ وهو يعرج عبر الأرض المليئة بالصخور.

كان لأبي عددٌ قليل من الصديقات، ولكنه لم يتزوج مرة أخرى، ما بدا أنه أفضل شيء للجميع.

أنا أحدُ الأخوين.

بابا

التخطي، كمفهوم، كان موضعَ نقاش بعد عام أو عامين، فتحهُ رجالٌ ودودونَ نيابة عن زوجاتهم ذوات النوايا الحسنة. النساء اللواتي أحببنَنا. المرأة التي عرفتني عندما كنتُ طفلًا.

أوه، قلْ إننا نتحرك. نحن نندفع في الفضاء اللعين مثل ثلاث عربات خردة كبيرة بلا مكابح! شكرًا لك جيفري، وأرسلْ حبي إلى جين.

التخطي، كمفهوم، للأغبياء، لأنّ أيّ شخص عاقل يعرف أنّ الحزن مشروع طويل الأمد. أنا أرفض التسرع. والألم الذي نواجههُ لا يدع الإنسان يُبطئ أو يُسرع أو يُصلحه. لذلك دخلتُ إلى غرفتهما في منتصف الليل الأزرق الداكن في الصيف، واستمعت إليهما إذ يتنفّسان.

شراشف ممزقة ومتشابكة، وأطراف ناعمة صغيرة تخرج من أسفل قطن طري، مطبوع بالروبوتات والقراصنة. اعتدتُ أنا وزوجتي أن نأتي ونضعهما في الفراش، ونتعجّب من مدى استغراقهما في النوم. ضحكنا من مدى جمالهما، قلنا:

«إنه جنون!» لقد كان جنونيًا.

وقفتُ وأخذتُ أفكر - كما هو الحال دائمًا - في أشياء مثل الهشاشة والخطر والحظ والنقص والصدفة والطيبة والضحك والصدق والعين والشعر والعظام والبشرة التي تجدد نفسها، غير متوترة أبدًا، دائمًا قابلة للتقبيل، حتى عندما تتيبُس، حتى لو جعلتُها مالحة جدًا، فقد شعرتُ بهذا في العديد من الليالي بالتأكيد، أنا منزعجٌ تمامًا بسبب مدى حبي لهذين الطفلين، وسألتهما بصوتٍ عالٍ:

هل تريدان الانتقال؟

لا يوجد ردّ.

هل يجب أن نفكّر في المضيّ قدمًا؟

حفيف وخشخشة الهواء في الخياشيم، طقطقة الألسن، تنهدات، الهواء العلوي اللطيف غير المرئي لغرفة في الجزء العلوي من شقة يحلم فيها الصغار.

١٠١

قلت: لا، أوافق، نحن بخير.

انضمّ إليّ الغراب عندما غادرتُ، وأغلقَ الباب، ووضعَ حول رأسي طوقاً مريحاً.

أنتَ لستَ وحدك يا فتى.

أولاد

ذات مرة كبرتُ، لديّ طفل. وزوجة. وسيارة. أبدو قليلاً مثل أبي.

نحن نقود عبر شلترنز، وداونز، وموورس، وبرودز، ونغنّي: «عطلات بريطانية للشعب البريطاني!»، لقد فعلَ والدي ذلك، وأرانا بريطانيا، جبلَ كادر إدريس، شارعَ ماليان سبوت، الآن يصرخُ ابني الصغير «كررا» عندما يرى غرابًا، لأنني عندما أرى غرابًا أصرخ كرااااا.

أحكي حكاياتٍ عن صديق العائلة الغراب.

تهز زوجتي رأسها. إنها تعتقد أنه من الغريب أن أتذكر باعتزاز العطلات العائلية مع غراب خيالي، وأذكّرها أنه كان وارداً أن يكون أيّ شيء، كان من الممكن أن يأخذ أية هيئة، ولكن حدثَ شيءٌ مفيد على نحو ما، نحنُ نفتقد أمّنا، نحنُ نحبُّ أبانا، ونلوّح للغربان.

وهذا ليس غريبًا.

بابا

«اسمعْ هذا، إنه جيد جدًا، لا تفوّتهُ، رامب-بوم-با-بوم-بار-روم»

بارب!

«اذهبْ بعيدًا أيها الغراب»

رجل: كيفَ تعرفُ أنك وجدتَ شيئًا يستحق أن تنقرَ فيه؟

طائر: حسنًا، جزءٌ كبير منه يتعلق بحالة الاستعداد، وهي حالة غريزية (الجوع، الرذائل إلخ)، والشق الآخر عملي (علبة جميلة ومقرمشة، أرمل جميل المظهر). ستتذكر من خلال بعض أعمالي المبكرة معك، أنّ ما بدا أنه ابتذالٌ بدائيٌ أصلي، كان في الواقع برنامجَ رعاية شديد الأهمية، مصمماً للاستجابة للفروق الدقيقة في تعافيك.

رجل: هل استجبتُ كما كنتَ تأمل؟

طائر: بل أفضل مما كنتُ آمل. لكن الفضل يرجع إلى الولدين وإلى الموعد النهائي. كنتُ أعلم أنه بحلول الوقت الذي أرسلتَ فيه مسودتك النهائية لمقال غراب إلى الناشر، أكون قد أنهيتُ عملي.

رجل: هل سأتخلص من الحزن؟

طائر: لا، على الإطلاق. لقد انتهيتَ من كونك ميؤوسًا منه. الحزن شيء ما زلتَ تمارسه، وشيء لا تحتاج إلى غراب من أجله.

رجل: أوافق. إنه يتبذّل طوال الوقت.

طائر: الحزن؟

رجل: نعم.

طائر: هو كل شيء. إنه نسيجُ الذات، والفوضى الجميلة. إنه يشتركُ في الخصائص الرياضية مع العديد من الأشكال الطبيعية.

الرجل: مثل؟

الطائر: من أين أبدأ. أوه.. الريش؟ الغائط؟ الموج؟ خلية النحل؟ سلسلة؟ أمعاء؟ عظام؟ الريش؟ ذكرتُها من قبل. قطة. انتظر لا، انتظر، قبعات، خرائط، فخاخ/ كتب، رخّ، جداول، رأس منقاري في..

رجل: هذا سخيف.

أشعر أنه إذا كان شبحُ زوجتي يطاردني، فقد حان الوقت لتهمسَ لي: «عليك أن تطلب من الغراب المغادرة».

أولاد

هذا ما نعرفهُ عن أبي. لقد كان فتىً هادئاً انجرفَ في جولات المشي العائلية، وخربشَ ورسمَ، وتضررت مشاعرهُ بسهولة من قبل الأطفال القُساة في المدرسة. لم يكن يميلُ إلى الحساب. لقد أمضى السنوات العشرين الأولى من حياته في قراءة الكتب، حيث لم يكن سيئًا، ولكنه لم يكن بارعًا في كرة القدم وكان ينتظر أمي. أحبّ الأساطير اليونانية والروس وجويس(35). كان ينتظر أن يكون والدنا.

وبعد ذلك وقعت أمُنا وأبونا في الحب وكانا حقًا قويَّين كالأحجار الجافة، وشديديَ التحمل. يتحدث الناس عن راحة بالهما، والفرح والعفوية وحقيقة أن رائحتهما أصبحت رائحة واحدة، رائحتنا نحن.

بعد ذلك كانَ أهدأ. لقد ظلَّ غريبًا جدًا لمدة سنتين أو ثلاثٍ بكل المقاييس. اتَّسم بمظهر وبسلوك دائم لشخصٍ عائم، يتحول إلى ضوء المساء الذهبي ويُفاجأ بالدفء الدائم. يتدحرج بكتفٍ منحنٍ، وبنصف حوَل وبنصف ابتسامة. مرتبكًا من التسرب البطيء المحيِّر للحزن الأبدي. أفترضُ، إذا عُدنا إلى الوراء، أننا سببُ هذا الحزن.

لم يقوَ على الغضب، ولم يكن بوسعه تمنّي الموت. لم يستطع كبتَ شعوره بالغياب عندما كان يبتسم أمامه، ويحمرّ وجهه في الصيف الإنجليزي إذ يغنّي تويدل دي تويدل دوم. ربما لو علَّمهُ الغراب أيَّ شيء لفقدَ عمله التوازن الثابت. فما من كلمة أقلّ قذارة من الإيمان.

عواء آسف، وهو نعم، وهو شكرًا لك، وهو من الآن فصاعدًا.

بابا

كان كتابي الصغير عن تيد هيوز جيدًا بما يكفي. تمَّت مراجعته في TLS:

«وإذ يرفض بشدة أن ينتقد أيًا من هيوز أو قصائده بشكل بنَّاء، إلا أن جمهورهما الحقيقي سيفرح كثيرًا».

دعاني ناشري الخسيس الذي يتخذ من مانشستر مقرًا له إلى تناول الغداء.

أخبرتهُ بفكرتي عن أعمال كاملة لتيد هيوز يشرحُها الغراب.

قال: «ماذا عن كتاب عن بازل بانتنج(36)؟»

شرحتُ أنَّ الغراب يمكنهُ أن ينتهك عمل تيد ويُوضحه ويلوِّثه. سيكون تحليلًا

أعمق، وحقيقياً، وحسابًا نقديًا وعملًا انتقاميًا. سيكونُ كتابَ قصاصاتٍ، كولاجاً، روايةً مصورة، حلاً للحدود بين الأشكال، لأنّ الغراب محتالٌ قديم وما بعد حداثي، رسام، محرر، ومخرِّب..

قال ناشري: «هل نحضِّر الفاتورة؟ عليك أن تمضي قدمًا. ماذا عن كتاب صغير عن بايبر وبيتجمان؟»

لذلك عدتُ إلى المنزل لأتحدث إلى الغراب حول إنهاءِ صُحبتنا.

لم أعثر عليه. لقد وجدتُ أنّ الولدين قد ألقيا كراتٍ مبللة من ورق التواليت على سقف الحمام، مما أثارَ استيائي لأنني أخبرتهما أنّها تلطّخ الطلاء. وحين انتهيتُ من تنظيفه، وطهوتُ العشاء ووضعتُهما في الفراش، أدركتُ بالطبع أن الغراب قد رحل.

غراب

إذن بالمغادرة، لقد انتهيتُ.

هل يجب أن أمشي في الحلقة للمرة الأخيرة؟

حدود الأولاد والأب. اقفزْ / انظر / اقفز / توقّف.

هل يجب أن أتبعَ الحدس للمرة الأخيرة، وأحزن على البحث عن وجبات غداء؟

حلمتُ أن ذراعها كانت زرقاء عندما وجدتُها، كانت حمراء حيث لمستُها، انفعلتُ، ونقرتُ قليلًا، أيّ شيء؟

أفسحت البدانة اللامعة الطريق للعظام، فوقعَ حادث في المنزل.

صدمتْ رأسها، حلمت قليلًا، كانت مريضة، نامت، قامت ووقعت، استلقت وماتت. قطرة دم من الأذن.

اقفزْ / انظرْ/ شمْ / تذوّق / من الأفضل ألا تفعل. فلا داعيَ لذلك على الإطلاق.

خدٌ هامدة، ساقٌ هامدة، قدمٌ وأصابع قدم، خاتم زواج وابتسامة.

يصلُ المُسعفون، والطفلانِ في المدرسة يتعلمان ويتعلمان.

كما كنتَ أيها الأرمل الإنجليزي، أيها الرأس الورقي.

الصعودُ إلى الجُرف الجنوبي، الآها، الحدب، النفخات والتكشيرات.

الأجور والامتحانات ومواقع سقوط الكرة والأكاذيب والممرات المبهجة.

كل هذا ميتٌ مثل حقل زهور برية، ويُزهر مرة أخرى في الوقت المناسب.

بعضُ الآباء يفعلون هذا، وبعضهم يفعلون ذاك. بعضهم شريرٌ بطبعه، وبعضهم الآخر لطيفٌ إلى حدّ ما، حيث تمّ تقليمه، وربطه بالحبال، لطالما كان الأمر هكذا. لقطات سريعة، نرحل بسرعة الشم والعطس. تمّ تنسيغه، لينمو بشكل جيد.

كانوا خبراء في افتقاد الأم. سعادتي المطلقة.

فقط كُن مطيعًا واستمع إلى الطيور. لقد عاشت الحيوانات المتخيَّلة على الحاجة والقدرة.

فقط كنْ لطيفاً وانتبه لأخيك.

أولاد

قال أبي إنّ الوقت قد حانَ لننثر رمادَ أمي.

هاتفَ المدرسة في الصباح ليخبرهم أننا مرضى. أنا في منزل طاعون.. هكذا قال مازحًا مع السكرتيرة، إنه وضعٌ سيئ هنا، والحالة تزدادُ سوءًا من كل النواحي إذا كنتِ تفهمين ما أعنيه.

يا للقرف! ضحكنا.

هيّا إلى الخارج يا أطفال. معاطفكم، وقبعاتكم، دعونا نفعل ذلك.

بابا

ذهبنا إلى مكان تحبّه. قلتُ لهما في طريقنا بالسيارة إنني أدركتُ أني أبٌ غير طبيعي منذ وفاة أمي. قالا لي: لا داعيَ للقلق. أخبرتهما أنّ كل الهراء حول الغراب قد انتهى، كنتُ سأحصل على المزيد من العمل بالتدريس، وأتوقف عن التفكير في تيد هيوز.

قالا لي: لا داعيَ للقلق.

أوقفْنا السيارة، وسرنا بخطٍ مائلٍ في اتجاه الريح.

تبوّلنا، فهبّت الرياح ببولنا على سراويلنا.

كنتُ أغفو بينما يحفر الولدان في الألواح الخشبية. وعندما استيقظتُ كانا نائمين بجانبي، مثل الحراس، وغطائهما مرفوع. شعرتُ بالدفء.

Telegram:@mbooks90

لم أوقظهما. مشيتُ إلى الشاطئ، وجثوتُ على ركبتي وفتحتُ العلبة.

قلتُ اسمها.

قرأتُ «قصة حب»، وهي قصيدة أحبّها كثيرًا لكنها لم تعجبها كثيرًا. اعتذرتُ عن قراءتها وقلت لنفسي: لا داعيَ للقلق.

خفقَ الرماد وبدا متحمسًا، قمتُ بإمالة علبة القصدير وصحتُ في مهب الريح:

أحبكِ، أحبكِ، أحبكِ

وهكذا ارتفعَ، يتحسّس السحب، وفشَل السحب، سريعاً علميًا ويائساً بصريًا، بقّعَ السماء الرمادية بمقتل طيور صغيرة محترقة، والبحر الرمادي، والشمس البيضاء، ورحلَ. وكان الولدان ورائي في تيار من الضحك والصراخ.

عانقًا ساقي، يتعثران ويُمسكان، يقفزان، يدوران، يتعثران، يزمجران،

يصرخان، وصاح الفتيان:

أحبك ، أحبك ، أحبك

وكان صوتهما هو حياة أمّهما وأغنيتها: غير مكتملة، وجميلة، وكانت كل شيء.

---

(1) هيرن الصياد هو شبح مرتبط بغابة وندسور في مقاطعة بيركشاير الإنجليزية. يقال إنّ لديه قروناً تنمو من رأسه، ذكره ويليام شكسبير عام ١٥٩٧ في مسرحية زوجات وندسور المرحات.

(2) ملامسة الأنف بالأنف، أو الأنف بالخد.

(3)«Jenny Wren» هي أغنية لبول مكارتني من ألبومه Chaos and Creation in the Backyard، صدر في المملكة المتحدة في ٢٠٠٥، وتدور حول نفس الشخصية من رواية «صديقنا المشترك» لتشارلز ديكنز.

(4) فيراجو دار نشر بريطانية لكتب المرأة والمواضيع النسوية. أنشأتها وأدارتها مجموعة نساء في السبعينيات.

(5) دليل كولينز للطيور هو دليل ميداني للطيور في منطقة بالياركتيك الغربية.

(6) شاعر من ويلز (١٩١٤ - ١٩٥٣)

(7) محتمل أن تكون إشارة إلى لعازر الذي أحياه المسيح بعد موته. (المترجم)

(8) ستونهنج هو نصب منذ ما قبل التاريخ في سالزبوري بإنجلترا. يتكون من حلقة أحجار عمودية واقفة، يبلغ ارتفاع كل منها حوالي ٤.١ متراً (١٣ قدم)، وعرضها ٢.١ مترًا (٦ أقدام و١١ بوصة) ويزن حوالي ٢٥ طنًا.

(9) الأحجار الضخمة التي استخدمتها الثقافات القديمة لإنشاء صروح بأشكال محددة.

(10) إشارة إلى كتاب الشاعر الإنجليزي تيد هيوز «غراب» المنشور في عام ١٩٧٠، كتبه عقب

انتحار زوجته الشاعرة الأمريكية سيلفيا بلاث.

(11) الشاعر الإنجليزي تيد هيوز وزوجته الشاعرة سيلفيا بلاث.

(12) صفة عامية تُطلق على الأماكن عالية التكاثر.

(13) استخدام الجص في تشكيل السقف أو الجدران بقالب فني

(14) قرية في غرب يوركشاير

(15) نبيذ أبيض إيطالي

(16) مؤلف موسيقي روسي

(17) مغني بلوز أمريكي

(18) موسيقى شعبية في جافا وبالي، تُستخدم فيها العديد من الآلات الإيقاعية البرونزية.

(19) لوحة زيتية للرسام فرانسيس بيكون في عام ١٩٦٦، وهي صورة لعشيقة جورج داير التي رسمها في ذروة قوة بيكون الإبداعية. يصور داير جالسًا على كرسي مكتب دوار في غرفة ذات ألوان فاتحة. جسمه ووجهه ملتويان وساقاه متشابكتان بإحكام. ويبدو رأسه محاطاً بإطار داخل نافذة أو بباب. فوقه مصباح معلق عارٍ. يحتوي العمل على عدد من الالتباسات المكانية. (المترجم)

(20) باللاتينية في الأصل. (المترجم)

(21) دونالد وينيكوت: طبيب أطفال ومحلل نفسي إنجليزي كان له تأثير خاص في مجال نظرية علاقات الأشياء وعلم النفس التنموي

(22) الشاعر الإنجليزي تيد هيوز

(23) Polyphemus الابن العملاق ذو العين الواحدة لبوسيدون وتوسا في الأساطير اليونانية.

(24)

(25) **أبرشية وقرية مدنية تقع على ساحل الأطلسي بإنجلترا**

(26) **هي خطوط وهمية يعتقد بعض العلماء أن الأماكن المقدسة ومناطق الحضارات التاريخية كلها موجودة على استقامتها**

(27) ١٨٩٠-١٩٣٧ شاعر وملحن إنجليزي

(28) شاعر سوفييتي ١٨٩١ – ١٩٣٨

(29) جون ميلتون، شاعر إنجليزي، وُلد في ١٦٠٨

(30) الشاعرة الأمريكية وزوجها الشاعر الإنجليزي تيد هيوز

(31) يتهم البعض تيد هيوز بأنه السبب وراء انتحار سيلفيا بلاث.

(32) يقصد وغداً

(33) ثاني قصص العم ريموس التي نشرت عام ١٨٨١

(34) شاعر وكاتب سيرة وناقد أدبي ورائد في أعمال دي إتش لورانس وتيد هيوز

(35) جيمس جويس، روائي أيرلندي.

(36) كاتب وشاعر بريطاني

